قصَّــة حيـَاة

تأليف
ابراهيم عبد القادر المازنى

دار الشعب

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

قصّة حياة

تأليف
ابراهيم عبد القادر المازنى

دار الشعب

قصة حياة

هذه ليست قصة حياتى ، وإن كان فيها كثير
من حوادثها : والأولى أن تعد قصة حياة

ابراهيم عبد القادر المازنى

مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها فى حداثتى على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : « أتظن نفسك طفلا ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب؟ لشد ما ركبك الوهم يا صاحبى ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التى كان ظنك أن ترتع فى ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » .

وأنكفئ إلى أمى أسألها عن الكرة لماذا حرمتها دون غيرى من لداتى فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترثى لى ، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلى ، بل تضع راحتها الرخصة على كتفى وتقول لى بصوت متزن : « اسمع يا ابنى إنك لم تعد طفلا ، وإنما أنت رجلنا الآن ، وسيد البيت ورأس الأسرة وكبيرها ! أى نعم . فقد ترك لنا أبوك مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب . ولم يبق لنا شىء » .

فسألتها : « هل معنى هذا أننا سنجوع ونعرى ؟ » :

فلم ترحمنى . وقالت : « قد نجوع ونعرى ! من يدرى ؟ ولكن أملى فى الله كبير . وعندى حلى ومتاع لا حاجة بى إليه . فسأبيع من هذا ونقتات ونكتسى . وستواصل التعلم — ما من هذا بد — حتى ينفد المال ، وينضب المورد . وعسى أن يكون بعد العسر يسر . فما يئست من رحمة الله . ولكننى لا أرى أن نعتمد على غير ما بأيدينا ، وهو قليل فاعرف هذا ، روض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه » .

قلت : « ولا اللعب ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكن بغير كرة نضيع فيها مالا بنا حاجة إليه لقوتنا . إن الكرة تشجع على الركض ، وتغرى بالنط . فاركض بدونها ، ونط بغيرها وسترى أنك لن تخسر شيئاً » .

فسرت أركض لأن هذا واجبى ، وما تطلبه الحيوية التى لا تزال مقصورة على أعضائى . على حين كأن يركض غيرى، للهو والتسلية .

فعرفت فى التاسعة من عمرى — وهى سن غضة جداً — أن هناك واجبات تؤدى لذاتها ، وحتوناً تقضى لأنها حتوق ، لا لأن فيها متعة ولذة : وأحسست من صغرى أن شأنى غير شأن الناس ، وإنى فقير وأن كنت مستور الحال . ولكن الستر لا ينفى الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه . فأرهف ذلك إحساسى ، حتى صار ينحى بمثل حد المبراة على قلبى فيحزه ويقطعه . فنزعت شيئاً فشيئاً إلى الإنقباض عن الناس ، واتقاء الخوض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعى نفقة وتكون فيه كلفة .

وقوى هذا الميل فى نفسى وعمقه أنى بعد الذى سمعته ووعيته من أمى . قصدت إلى أخى الأكبر — وهو من غير أمى — وسألته عن مال أبينا أين وكيف ذهب ؟ فقال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذى أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيراً مما أتلف . فأحسست أنى شببت جداً عن الطفولة فى تلك اللحظة !

وانصرفت وأنا أتساءل « أليس لكل امرىء حقه ؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجنى على جماعة ! وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك » ..

وصرت أخاف الناس وأنظر إليهم شذراً . وإذا كان الأخ يجنى على إخوته وأمهم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب الذى لا تصلك به رحم ، ولا تعطفه عليك عاطفة من قرابة أو نسب .. ؟ » .

وأقبل علينا قريب لنا يقول إن فى وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء

نفقات التعليم ولكن « الواسطة » يطمع فى جزاء أو « رشوة » فأبت أمى كل الإباء . فما زال بها حتى ملت إلحاحه ، فدفعت إليه ما يطلب . وغاب شهور الصيف . ثم جاءنا يقول إن الوزارة أعفتنى من نصف نفقات التعليم ، فقلنا شيء خير من لا شيء . ولكنه كان كاذباً . وتبينا أنه لم يرش أحداً ، وإنما استحل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة .

فزاد سوء ظنى بالناس ، وانزويت عنهم ، وأقبلت على دروسى لأفرغ من التحصيل بأسرع ما يستطاع ، فيتسنى لى بعد ذلك أن أكسب رزقى ، وأنقذ نفسى وأهلى من هذه الفاقة التى منينا بها لغير ذنب جنيناه .

وترك هذا كله أثره فى نفسى ، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالى أو يقاربه ، وصرت أشعر أنى غريب إذا ألقت بى المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف . فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم . ويكبر فى وهمى أنهم لا يخفى عليهم أنى نشأت فقيراً . وانى امتحنت فى صباى أقسى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا مخايلة مقصودة يشقون لى بها جفونى ويطلعونى على ما بينى وبينهم من بون .

وكنت قد كبرت وأصبحت معلما ، وعندى فوق الكفية من الرزق فأشفقت أن يورثنى هذا عقده نفسية أو « مركب نقص » كما يسمى ، فعالجت ذلك بالتمرد ، ورحت أعد الذين نشأوا فى حجر النعمة وظل اليسار ، من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون ، متطرون خرعون ، لا يعرفون شرف الكد ، ولا يدركون مزية الكدح والسعى ، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطفيل ، ولا يحيون حياة صحيحة ، ملأى بحركة الشعور والعقل، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم ، وأنا وأمثالى أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم .

وارتفعت بها السن شيئاً فشيئاً ، وزادت التجربة ، ورحب الأفق على الأيام . فأدركت أنى أسرفت على نفسى وعلى الناس . وتبيت أن لا داعى للمرارة ، فقد أفادتنى المحنة صلابة وعزما وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها ، ولو كنت نشأت فى نعمة سابغة لكنت حريا أن يفسدنى التدليل ، ولا ذنب للناس جميعاً فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفى الدنيا الصالح والطالح ، ومن الظلم أن يبوء البرىء بإثم المذنب ، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد ، وكل امرىء يزل ، والعصمة لم يؤتها إنسان وحتى ما بنى أخى قمن بالغفران . فما هو فى ذاته بالذى توصد دونه أبواب العفو ، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائز أن أطيشها لو كنت مكانه وكان حبلى على غاربى كما كان على غاربه ، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع ، وما أهداه إلينا من الكرب الجسام ، فهو جدير بالرثاء والرحمة والنقمة . وما شهدت النعمة التى تقلب فيها زمنا وجيزاً ، ولكنى شهدت الندامة التى ظلت تأكل قلبه بقية حياته ، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن منى ، ولكنه هو كان أشد توقيرا لى منى له ، وأعظم بى تحفيا . ولما نشرت أول كتاب لى — وكان ديوان شعر — حملت إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة ؛ فتناولها معجبا ، وقلبها جذلا ، وشرع يقرأ ، فما راعنى إلا دمعه المنهمر ، من فرط الحنو والزهو . فنهضت إلى زوجته وتشاغلت بالحديث معها ، فما أطيق البكاء ، ولا أعرفه ، وإنى لأدرى أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لامرىء عبثاً   الله أدرى بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتا عبراتى وعلمتنى أن أبكى بقلبى دون عينى ، وأن أستر ضعفى عن الناس ، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرأون فيها آيات الرضى والاستبشار والثقة .

والفضل فى ذلك لأمى ، فقد جئتها يوما أبكى لأن غلاما ضربنى فأوجعنى ، فنظرت إلى باسمة ، ولم تربت على كتفى ، ولم تكفكف دمعى ، ولا واستنى وإنما قالت لى : « رجلنا يبكى » ؟ فماذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات ؟ » فخجلت ، ولم أكن خبرتها الخبر . فقلت — كأنما كنت فعلت — « ولكنه أكبر منى » قالت لا شك ، ولكن حيلتك ينبغى إذن أن تكون أوسع » فما غلبنى بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسما ، حتى خافنى صبية الحارة وحرصوا على اتقاء شرى .

والعبرة بالخواتيم — وقد انتقلت بى الحال بعد طول الضنك إلى سعة مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم ويسر .

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ووجدت أن التسامح الذى مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر ، وسكينة النفس ، من تلك المرارة القديمة التى كان ينضح بها الوجه ويقطر اللسان . وألفيتنى أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معى فى نعيمى بها ، وأحاول أن أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضىء لهم وجوه العيش وتمنحهم الدفء ، وتشيع الابتسام والجذل فى وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم من أزهار الحياة ريحانا وآسا ونرجسا ، وأن أجمل ما كان يبدو لى ولهم دميما ، وأزين العاطل ، وأرقرق الماء فى حواشى النسيم ليعود أندى على القلب وأثلج للصدر .

وتوسعت فى هذا وتعمقت . فقلت : إنى مثل الناس غيرى ومنهم ، وكلنا مجبول من طين واحد ، ولست خلقا قائما بذاته ؛ أو بدعا فى هذه الدنيا ، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذا أنا وسعنى أن أعرف نفسى ، فصار دأبى بعد هذا أن أخلو بنفسى ، وأحاسبها ، وأراجعها ، وأغوص فى أعمق أعماقها على بواعثها ، وعلى ما تغرى بها غرائزها المهذبة

أو الساذجة ، وأن أقف على دواعي ضعفها ونقصها ، وأسباب قوتها ، وجعلت كدى كلما بدا لى ما يسوء ، أو يريب أو يسخط ، من أحد أن أحاول أن أضع نفسي فى مكانه ، وأن أنظر ماذا كنت خليقا أن أصنع لو أننى كنت محله ، وكان يحيط بى ما يحيط به ، وكان لى مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة ، فأصبحت فيما أعتقد — غير مغرور أو مخدوع فيما أرجو — أعدل وزنا وأكثر إنصافا ، وأسرع إلى تمهيد العذر منى إلى سوء الرأى .

وليس معنى هذا أننى الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن تكون ، أو أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، أو ما هو كائن . كلا . ولكنى أرى أن معالجة الأسواء والفساد بحسن الإدراك ، وصحة الفهم ، والرفق والحسنى ، أجدى وأرشد . وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام النقمة ؟ . إن الذى له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم ، وأن نهتدى إلى وسيلة الإصلاح ومداه وليست ثورة النفس بالتى تعين على هذا وتيسره ، فإنها خليقة أن تورثنا اضطرابا فى التفكير ، وأن تجمح بنا إلى غير ما يشير به العقل ، وتصفه الحكمة . وإنما الذى يعين على الصلاح والخير ، والتفكير الهادىء والتدبر الرصين ، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل ، وأصالة الرأى ، والحذق فى التدبير ، ولا سبيل إلى شىء من هذا إذا اهتاجت النفس ، وقامت قيامتها وثارت كاللجة المزبدة .

ولماذا أكتب كل هذا ؟ ما صلته بموضوع الكتاب ؟ لا أدرى ! سوى أنى لطول اعتبارى أن أتدبر نفسى وأدير عينى فى جوانبها ، أصبحت أعتقد أنى أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعنى أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صافية — لا مزورة ولا مموهة — من هذا الإنسان الذى هو أنا ، والذى هو أيضاً كل امرىء غيرى . وليس هذا بالمطلب الهين ، وما كان مناله قط ، ولن يكون دانيا . غير أن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعلى المرء

أن يسعى جهده وعلى الله التوفيق ، وإن طاقة الإنسان لمحدودة ولكنه ليس عاجزاً كل العجز ، ولو أن كل إنسان أخلص وصدقت سريرته وبذل ما يدخل فى وسعه ، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضى .

وأحسب أن من بواعثى على هذا الاستطراد ، أنى أقول لنفسى إذا أنا لم أنفع بتجربتى وفهمى هذا الجيل الذى يغذ الخطى وراء جيلى ، فما خير أنى كنت وعشت ، وفهمت أشياء وجربت أموراً ، وألممت الحقائق ؟ إن من ألأم اللؤم أن تبخل بعلمك على غيرك . وقد يعذر الذى يضن بالرغيف وهو جائع ، على رفيقه ، وفى الطباع الإنسانية أن يؤثر المرء نفسه ، فى خصاصته ، على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات فى المحنة أن يخطف اللقمة من فم ابنه وهو ضنئوه وفلذة كبده لأن التضور وخوف التلف الوحى يثيران غريزة حفظ الذات فيذهل الإنسان عن واجب المروءة ، وواجب الأبوة ، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال ، وهى لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك ، وفى وسعك أن تهدى منها ولا تخش عليها النقص ، ومن المحقق أنك أحرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأفطن وأوسع مدارك وألطف حسا .

فالضن بالمعرفة ضيق عقل وسوء رأى ، ولؤم نفس وخسة طباع — بلا مسوغ ما ، ولا فائدة ما — لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت و ألم ترد ، وبمعونتك أو بغيرها . فما أنت فى الدنيا بالوحيد الذى ينظر فيجد، ويبحث فيهتدى ، ويعالج فوفق .

وأمر آخر أردته ، وأظنه مما ساقنى فاستطردت . ذاك أن الناس أشباه متماثلون وإن تفاوتت بهم الأحوال ، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد ، وإن كان المظهر يوقع فى الروع لأول وهلة أن المخبر شىء آخر .

— ١ —

تلك كانت حياتى — فقد نشأت فى بيت صارم التقاليد فى ساحته الواسعة مصلى وميضاة ، وعلى جانبى مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمريدين، وكانت آخر هذه الحجرات ، مما يلى الساحة مباشرة — غير مسقوفة ،وكانت تتخذ اصطبلا لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس يجتمع المفرقون من هؤلاء الأتباع فى المصلى ، ويتلون « الورد » وهم قعود ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام فالخلوة ، وفى الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى « الورد » مرة أخرى ، وتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل « الفول النابت » والخبز .

وكان يروقنى هذا ويستولى على خيالى ، فأشاركهم فيه ، وأتلو الورد الذى يتلونه ، وأصلى على النبى كما أراهم يصلون ، وأهز رأسى وجسمى فى الصف عند « الذكر » كما يفعلون ، وأحاول — عبثا — أن أجعل صوتى غليظاً عميقاً ، وأرافقهم فى الفجر إلى المقبرة ، وأزيد عليهم فأعرج على قبر أبى فأزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنة .

ولم يكن هذا بيت أبى ، وإنما كان بيتا يسع من شاء من الأسرة أن يذهب إليه ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبى وساءت حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصادا فى النفقة ، وعز على ذلك فى أول الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم والخادمة والبواب والبستانى ، ومن العجيب أنى أذكر مدخل البيت وساحته الرحيبة وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب

أبى ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ماعدا ذلك بهتت صوره ، وأذكر أنى كنت أدخل على أبى فى مكتبه وعنده أصحاب القضايا ، فأقف إلى جانبه وهو مكب على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض « أبويا . أبويا . أبويا هات قرش .. » فيضع يده فى جيبه ثم يخرجها بما تخرج به — بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر — فأتسلل بما أعطيته ، فألقى أخى الأصغر ينتظرنى عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد بائع الدندرمة .. فندفع إليه مامعنا ، ونأكل حتى نشبع ونحمد الله ، أو لا نحمده فنميل على دكان مجاورة لبيتنا فنشترى كرات وبليا وما إلى ذلك — نبدد الفلوس والسلام وكان أخى أصغر منى وكان جميلا مشرق الديباجة سميناً وبضاً غضاً ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين فيحسده فاتفق يوما أنى كنت عند عمتى ، فلما مر « بائع الدندرمة » أقبل عليه الغلام بالطلب كالعادة ، فناوله من مثلجاته ، ولم يجد أخى معه ثمن ما أكل ، فخلع طربوشه . وعرض على الرجل أن يقبله بديلا من الثمن وكان أخى ولا يزال عظيم الرأس ، فطربوشه يصلح للكبار ، فمضى الرجل به ولم يعد بعدها لسوء حظه .

ومن الصور التى لا تزال ماثلة أمام عينى ، أن جدى دخل على أبى فى مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفاً وأفسح الزباين له ليقعد ولكنه لم يفعل والتفت إلى أبى وطلب منه شيئاً ، فاستمهله هنا فما كان من الجد إلا أن رفع « العكاز » وأهوى به على كتف أبى ، فتأوه واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدى غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ، وعاد إلى كرسيه فى مدخل البيت .

وكنت أنا حاضراً هذا الذى حدث ، فشق على أن أرى جدى يضرب

أبى بهذه الهراوة الضخمة ، فخرجت إليه فنادانى وأدنانى منه وأجلسنى على حجره وشرع يلاطفنى ويدعو لى ، ولكنى كنت مغيظاً محنقاً فتناولت شعرات من لحيته الكثة وشددتها وفى نيّتى أن أنتفها كلها عقاباً له ، فزجرنى وأدار وجهه ورفع يده له لتخايص لحيته ، فبدأ لى قذاله فصفعته فطار عقله ودفعنى فارتميت على الأرض ورأيته يميل على هراوته ويتناولها فوضعت ذيلى بين أسنانى وانطلقت أعدو .

وقد ظل جدى شهراً يأبى أن يكلمنى أو ينظر إلى ، وأنا أكاد أجن من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه ، فلما فاءت نفسه إلى الرضى كتب لى حجابا وجالده — حفظاً له من التلف — وعلقه على جنبى الأيسر ليقينى الله سوء الأدب ، إذا كان قد وقع فى روعه ووقر فى نفسه أن الناس حسدونى فكان منى هذا الذى أسخطه على .

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه أحد واقفاً يحدث بنتا أو يلاعبها . ياحفيظ ! ولد يلعب مع بنت . . . هذا إثم كبير ومعصية توصد من دونها أبواب الغفران ، فإنه عيب وسوء أدب وقلة حياء وفساد تربية وأشنع من هذا وأبلغ فى العيب وسوء الأدب أن تلعب البنت فى الشارع أو فى ساحة البيت ألا تكفيها حجرات البيت التى تطل نوافذها على الطريق وعلى فناء الدار . . . وصحيح أن الشبابيك مسمرة ؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهــذا يكفى ؛ بل كان من العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته .

وتغرب الشمس فيجىء الخادم من الشارع ، ويهش علينا كما يهش على الغنم أو الدجاج ، ويردنا إلى البيت والحجرات ذات الشبابيك المسمرة مخافة أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب فى الحارة ؛ أو يصادفنا « السماوى » فيميتنا ، أو يظهر لنا عفريت فيركبنا أو يرعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل العفاريت ، ويكون الحر شديداً والليل جميل وتزهق أرواحنا فى الغرف

المكتومة ونشتهى أن ننعم بالليل والسماء الحافلة بالنجوم الخفاقة اللمعان ، ولكن لا سبيل إلى ذلك .

وكانت بنت خادمتنا فى مثل سنى ، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إذ نهش إلى الغرف فى الليل فتأبى أمى وأمها ذلك علينا وتصرفاتنا عنه لأنه عيب ، وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها — تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها وقد تضربها علقة ، وتجرنى أمى من يدى أو من شعرى إذا حزنت ، أو تحملنى وأنا أضرب بيدى ورجلى فى الهواء وأصرخ وأصيح وترقدنى برغم أنفى على السرير وتغطينى باللحاف وتروح تحدثنى عن العفاريت وتصف لى ما تصنع بالأطفال الذين « لا يسمعون الكلام » ولا يفعلون ما يؤمرون ، وتروى لى قصصاً يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن « المريرة المزتزرة » و « أبى رجل مسلوخة » وغيرهما وغيرهما فأتضاءل ويدخل بعضى فى بعض ، وتهم بأن تتركنى وقد اطمأنت إلى سكونى ووثقت أنى غير مفارق فراشى فى ليلتى تلك ، فأصيح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبى لأن « اللحاف » يحدق فى بعينين تقدحان شرراً ، أو لأن دهان الحائط يبدو لى عليه رسم يشبه ما سمعت من أوصاف أبى رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من الجدار ويعمل على بأسنانه وأظافره .

وبعد لأى يغلبنى النعاس فأنام وأنا أحلم بالعفاريت والإمساخ في الليل المخوف والنهار الذى يعيد الطمأنينة ، والسلالم المظلمة وما يجيء لى عندها ، ولم تكن أحلامى تخلو من متع منغصة ، وما أكثر ما رأيت فى منامى أنى لاعبت هذه أو تلك من البنات وأن أهلى دهنونى بالسمن والعسل وقيدونى ورمونى فى ركن حالك السواد وتركونى للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات . :

ويصبح الصباح فأحمل إلى « الكتاب » حملا ، وهناك توضع قدماى فى « الفلقة » ويهوى عليها « سيدنا » — فقيه الكتاب — « بالجريدة » أو « المقرعة » أو يكل ذلك إلى مساعده « العريف » وبهذا يبدأ النهار .

— ٢ —

لم يطل مكثى فى « الكتاب » لأن أمى أصرت على المدرسة . وكان أبى مشغولا عنا بزوجة جديدة وكان عمله يضطره إلى السفر إلى « استنبول » فكان يقضى هناك ماشاء الله أن يقضى — شهوراً أو عاما أو قرابة ذلك — ثم يعود ومعه زوجة . وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى ، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويجىء بغيرها وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب ، فإن يكن ذاك فما ورثت عنه إلا نقيضه ، ولست أعنى — كما لا أحتاج أن أقول — أنى أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعياذ بالله ، وإنما أعنى أن اللون الأسمر آثر عندى وأحب إلى ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكانتا من الحسن فى منزلة واحدة ، فالسمراء عندى أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمى ولنفسى ، فإنى أسمر — أو إلى السمرة أقرب — ولعلى أكره أن تزهى على واحدة ببياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ماكنت فيه :

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية ، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنبة أنفها آثار أسنانه ، ذلك أنه عض أنفها فى ساعة من ساعات الغضب أو الجنون ، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزاً واضحاً . ولبعض الناس ولع بالأنوف فى ساعة الغضب ، فقد كان لى قريب يتناول أنف زوجته إذا ساءه منها فعل أو قول ويهزه يمنة ويسرة فيدور رأس المسكينة ، وتتساقط دموعها :

ولم يهجر أبي (البيت الكبير) في سبيل هذه الزوجة الجميلة — فقد كانت جميلة والشهادة لله ، وكان الرجل معزوراً — ولكنه كان يقضي عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته في البيت الكبير فكان يقضيها مطرقا يسمع التقريع والتأنيب من جدي تارة ، ومن أمي تارة أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال قليل الكلام ، فكان لايزيد على الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضاً ، فإني أحمق طياش سريع الغضب حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذره ، ومن الإنصاف لأبي أن أقول إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده في البيت الكبير فضلا عن عمله المضني ، لم يبق له وقت يعني فيه بنا نحن بنيه الصغار ، وكان لنا أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم في الشهر الأحمر ، ومن حوادثه التي تروى أنه كان يصلي الفجر في مسجد الحسين ، فخرج مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألفى باب المئذنة مفتوحا ، وكان المؤذن شيخاً هرماً ضخم الجسم ، كالفيل الصغير ، وكان أعمى ، فخطر لأخي أن يعابثه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذي لا يدري أن وراءه هذا الشيطان ، وأنه ليرفع الصوت بالآذان ويصيح في سكون الليل (حي على الصلاة) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة ويصيح متمما (حي على الفلاح) فريع الرجل وله العذر ، وكان ضخما كما قلت ، وعلى صدره قنطار من الشحم ، وكانت صدمة المفاجأة عنيفة فسقط مغشياً عليه وميتاً على قول ، ولم يضطرب الأخ المحترم بل أتم الآذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدم المسجد بالبحث عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قرير العين راضياً عن نفسه ونام نوم الصالحين .

وكان أبي في وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية في المدرسة الخديوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عينيه ، فكان هذا الابن البار هو

الذى زهد أبى فى التعليم فنفض يده منه واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء أخى فى هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يغرى الطلبة زملاءه بالخروج فى فحمة الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ويتخذ منها هوو زملاؤه حبلا يتعلقون به ، ويتدلون وبه يصعدون أيضاً حين يعودون مع « الديكة » وظهر الأمر فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ، وتماسكا وتضاربا فانكسرت رِ‍ ل الضابط ولا آخر لحوادث هذا الأخ وقد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعا بالعبث .

وكنت فى السادسة أو حوالى ذلك لما أخرجتنى أمى من « الكتاب » وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيدا لإدخال مدرسة حكومية ، ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها « فصلا » واحداً للصبيان ، وكانت صاحبة المدرسة « خياطة » ومن هنا معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد ، وكل ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع فى حجرة ضيقة ، توصد علينا بالمفتاح ؛ فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى نتلقى فيه الدروس وهى الساحة التى نلعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً وكنا إذا تركنا المعلم نزحزح الأدراج عن موضعها . لنفسح مكانا لنا ونحن نتقاذف الكرة أو نجرى « البلى » على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا زجاج النوافذ وغرم آباؤنا ثمنه .

وكان مساعد المديرة رجلا فظاً كما قلت — إذا أخطأنا أو قصرنا — يأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العارى بالخيزرانة . وكنا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوما أن أوسعنا ضرباً على رءوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه وأشبعناه لكماً وركلا ، ومزقنا له سترته الطويلة — الاستانبولين — وخطفنا العصا من يده وأذقناه

وقعها على أصابع يديه وعلى ركبتيه ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنات الوديعات عن الصبيان الملاعين .

وكان ابن زوجة أبي معي في هذه المدرسة ، فلما طرد كما طردت ، وكان الوقت قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر ، فأشرت بأن لا يفعل ، واقترحت أن نبحث بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها ، فنخرج من هذا المأزق ، فوافق ففعلنا ، واهتدينا إلى مدرسة في شارع « تحت الربع » أو « درب سعادة » لا أذكر ، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة .

وبعد نحو أسبوع عرف أبي ما كان ، فلم يقل شيئاً ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى في شارع محمد على على ، مقربة من القلعة وتسمى مدرسة « القرشوللي » وأظن أن زوجته هي التي هدته إليها وأشارت بها ، فقد كان صاحبها تركيا ، وفي هذه المدرسة كان الضابط — وهو تركي أيضاً — يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ولكن السوط كان في يده ، وكان يكفي أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها ، ولكن صاحبها أبي أن ينقلني إلى « فصل » أرقى ، لأني صغير السن ، فبقيت في السنة الأولى عاماً آخر بلا موجب سوى حذلقة هذا المدير أو الناظر الذي استضأل جسمي واستصغر سني ، واستكثر على السنة الثانية من أجل ذلك .

وكنت أعود عصر كل يوم فأرمي كتبي وكراساتي ، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقراني ، فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبي حسرة ولهفة . وأسمعهم يصفونني ، « بالعقل » و « الهدوء » فألعن « العقل » وأذم « الهدوء » فقد كنت مكرها على ذلك لا مدفوعا إليه بطباعي وميولي ، ومتى رأيت طفلا ساكناً قليل الحركة ، فاعلم أنه مريض

أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجرى وينط إذا لم يفعل ذلك فى طفولته .

ويدخل الليل فأجلس قريباً من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفاً من السوط لا رغبة فى التعليم ، ويرانى أبى فيشفق على عينى أن تؤذيهما القراءة فى الليل ، فينهانى عنها ، فأطوى الكتاب وأسكت ، وأضيق ذرعا بهذا الصمت ، فأفتح فمى وأهم بكلام فينهانى أبى وينهرنى ، ويقول لى : « لا تقاطع الكبار ، ولا تحشر نفسك معهم » فأقول أنه ليس هنا صغار أحشر نفسى معهم فمع من أتكلم ؟ فيعبس ويضع أصبعه على فمه ، فأسكت ثم ينفد صبرى فأعود إلى الكلام فيقول لى ألم أقل لك إن هذا الكلام لا يليق . فأعترض بأنى أراه يتكلم وأرى أمى تتكلم فلماذا يليق بهما ما لا يليق بى . فيبتسم ولا أدرى لماذا . ويربت لى على كتفى وخدى ، وقد يقبلنى ويمسح لى شعرى ، فأتململ وأقول له إنى أريد أن أتكلم وألعب فمع من ؟! بنت الخادمة لا يليق أن ألاعبها لأنها بنت ، وأخى أصغر منى بأربع سنوات وهو على كل نائم :

فتحملنى أمى إلى الخادمة ، وتوصيها بى ، وتتركنى معها ، فتسرى عنى بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبنى النعاس :

وكنت أرى أبى يدخن وهو متكىء بكوعه على مخدة فيتلوى الدخان فى جو الغرفة ويتلوى خياله على الحائط ، فأتتبعه بعينى تارة ، وبأصبعى تارة أخرى . واشتهيت مرة أن أقلد أبى : فجئت بورقة ولففتها على صورة السيجارة وجعلت أضعها فى فمى وأنا متوكىء على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبى ، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى ، فأشعلت عود كبريت وأضرمت النار فى اللفافة واتفق أنى وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعدو ، واختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة فى البيت ، وكان

كل من فى البيت يجرى بالطشوت والأباريق والقلل لإطفاء الحريق فلم يجد ذلك شيئاً وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت أنابيبها إلى البيوت . وكان السقا يمر بنا كل يوم فيملأ لنا الأزيار والطشوت وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطيئة ، ولا سيما فى الأحياء الوطنية ، فلا تليفون ولا ترام ولا سيارات ولا شىء إلا الدواب ومركبات الخيل وكانت إدارة المطافىء تتقاضى خمسة جنيهات إذا دعيت لإطفاء حريق . على أنى لا أدرى بماذا كانت تطفىء الحرائق ولا ماء هناك يجرى فى الأنابيب . فإذا قلت إن البيت احترق ، وأن الحارة كلها شبت فيها النار فلا يصدقنى القراء ، والمثل يقول « يعملها الصغار ويقع فيها الكبار » أى والله :

— ٣ —

كان لأخى الأكبر زوجتان من قريباته تقيمان معنا فى بيت واحد لهما منه الدور الأوسط ، ولنا جدتى وجدى وأبى وأمى — الدور الأعلى — وللمكتب الغرف — أو المناظر — التى كانت فى ساحة البيت ، أو فنائه . وكان أخى — كأبى — مزواجاً . فأما أبى لا أعرف لماذا كان هكذا ، فما أعرف فى أسرتنا كلها من كانت له زوجتان فى وقت واحد ، أو من طلق زوجته أما أخى فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين فى حياة أبيه ، وهو لا يكسب قرشاً بعرق جبينه ، ولا مورد له إلا ما يجود به عليه الوالد ، ولهذا يحسن أن أقول ، إن أباه زوجه وهو صغير — كما كانت العادة فى ذلك الزمان — ليفرح به ، وكانت ليلة الجلوة ليلة سوداء أعنى أن السرادق أقيم ، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات ، ومدت الموائد ، وراحت الموسيقى تعزف ، وشرع المغنى يصعد إلى « التخت » وإذا بنبأ يجىء من سمخراط أن المرحوم إبراهيم أفندى الوكيل توفى فجأة ، فأطفئت الأنوار ، وانفض السامر وشرع الذين كانوا فى جذل وسرور وحبور ، يتهيأون للسفر إلى المأتم .

ومضت سنوات فلم يعقب أخى نسلا فقلق أبى ، وقال قائل إن الزوجة عاقر ، وقال آخرون قد يكون العقم علته من « الولد» فما العمل .. العمل أن يزوجوه من أخرى على سبيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وقد كان ، ولكن « الولد » — أعنى أن أخى — ظل لا يعقب شيئا ، ولم يفد من هذه التجربة ، إلا أنه صار ذا زوجتين .

وعلى ذكر العقم ، أقول إن أخى هذا وشقيقته ، عليهما رحمة الله ، من أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبى أمى ، وقد شاءت الأقدار أن يكون نسلها عقيما ، وأن يحرم ابناها — أخى وأختى — بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب فى الذرية ، وكان بلاء أعظم ، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان ، وأن تحتمل مايبديه بعلها من اللهفة على البنين وأن تنصح له بالزواج ، فلما فعل ورزق طفلا طلق أمه — أو ماتت لا أدرى ، فتولت هى تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك ، فكان أبر الناس فى حياته وأحناهم عليها وأعمقهم حزنا لما وافاها الأجل .

وأعود إلى أخى بعد هذا الاستطراد فأقول إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر ، أو أن يدخن أمام أبى ، فقد كان السهر والتدخين محرمين على غير جدى وأبى ، فأما جدى فكان يتخذ مايسمى « الشبك » — بضم الشين والباء — وهو قصبة طويلة جداً نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها محشى شيء بالدخان وتوضع عليه الجمرة . وأما أبى فكان يتخذ السجاير ولكن ما كان مباحا لهما ، كان محرماً على سواهما — لا أدرى لماذا — وإن كان أخى ذا زوجتين .

وقد رأيت أخى مرة يدس السيجارة فى جيبه وقد خرج عليه أبى فجأة فتحرق الجيب ، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم .

وما أكثر ما كان أبى يضربه ، لأنه يسهر ، ويدخن ، ولكن العلقة الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين ، حدثنى أخى بعد أن كبرت وأصبحت رجلا مثله لى شاربان أفتلهما ولحية أحلقها ، قال : (لم يكن باقيا على العيد إلا بضعة أيام ، فخطر لى أن أقص شعرى قبل أن أذهب إلى الحمام) — وكان أخى مغرما بحمام السوق أو الحمام التركى ، يؤثره على ما عداه — وكنت قد مللت حلاقنا ، وكان شيخاً وقوراً له لحية كثة

هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها، وسئمت فوطته الحمراء المخططة ، والطشت الذى يضعه لى عند رقبتى ويترك لى حمله ، فيسيل الماء الذى يصبه على رأسى بلا حساب ، على ثيابى وينفذ إلى بدنى ، فتلت التمس حلاقاً آخر ، وذهبت أجوب الشوارع وعينى على دكاكين الحلاقين ، حتى خرجت من الأحياء الوطنيةودخلت فى الشوارع التى يكثر فيها الأجانب ، واهتديت إلى حلاق أجنبى ، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل على يرحب بى ، وأجلسنى على كرسى وثير لا عهد لى بمثله ونشر على صدرى فوطة بيضاء مكوية ، لها كمان يدخل فيها ذراعاى ، وقص شعرى ، ثم نفض الفوطة وجاء بغيرها وحلق لى ذقنى بماء الكولونيا ، ثم راح يقترح على أن يصنع كيت وكيت مما لم أكن أعرف مثل « الماساج » و « الشامبو » إلى آخر ذلك ، وأنا جذل أهز له رأسى أن نعم، كلما عرض على شيئاً من ذلك ، ثم قال : « مانيكور» فهززت رأسى موافقاً وإن كنت لا أعرف ماذا يعنى ، فدعانى إلى ماوراء ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدرى من أى الفراديس جاءت ، وقال لها كلاماً فابتسمت لى وتناولت كفى الكبيرة الخشنة التى ينطى ظهرها الشعر ، وعكفت على أظافرى تنظفها وتقصها ، ثم تناولت شيئاً جعلت تدهنها لى به وأنا أكاد أموت من الخجل ، وصدقنى حين أقول لك إن هذه أول فتاة غريبة لمست كفها كفى ، فإذا أضفت إلى هذا أنها كانت ساحرة الجمال ، ذهبية الشعر ، وضاءة المحيا ، مشرقة الجبين ، نظيفة الأسنان ، وأن ابتسامتها فاتنة ، وفى صوتها عذوبة تذيب المرء ، وأنها هيفاء ممشوقة ، وخفيفة لطيفة ، وأن فى نظرتها ليناً يغرى بتطويقها وضمها، وأنى ماعرفت من النساء إلا البدينات اللواتى تخنق روحهن ما عليهن من أكداس اللحم — إذا أضفت هذا كله — فإن فى وسعك أن تدرك عذرى حين أقول لك إنى عشقتها . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً .

وكنت أنظر إليها كالأبله ، ثم فتح الله على ، وأطلق لسانى من عقاله فقلت وأنا مضطرم الوجه من الخجل : إنى لم أكن أدرى أن المانيكور هو

هذا ، وإنى آسف فإن كفى كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر ، وأحسب أنه لايليق بى أن أدعها تصبغ لى أظافرى ، فإنى أخشى أن أضطر إلى إخفاء يدى حتى يذهب هذا اللون ، وهممت بأن أنزع يدى من يدها، فشدت عليها ولم تتركها لى ، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها فى حياتى :

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الخشنة ، وإن أكثر ماترى من الأكف لين بض غض كأكف النساء ، فلم أدر ماذا أقول لها فى جواب ذلك ، ولكنى أنفت أن تصبغ لى أصابعى ، وأبيت أن أناولها يدى الأخرى وقلت حسبى واحدة ، وسألتها : متى يزول ذلك ؟ فقالت : « أوه ! إنه لا يدوم . . لاتخف » فاشتهيت أن أقول لها أنى أحب أن أراها مرة أخرى ، ولكن لسانى وقف فى حلقى ، فلم أنطق بحرف ، واكتفيت بأن أمد لها يدى مصافحاً ، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهززتها كأنما كنت أصافح رجلا فأدهشنى أنها قالت :

« أرجو أن أراك » فكان جوابى السخيف : « ولكنى لا أستطيع أن أقص شعرى كل يوم » فابتسمت وخيل إلى أنها تكاد تميل على وقالت :

« إنى أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساء » ، قلت :

« آه ! إذا كان هذا فسأنتظرك على الرصيف الآخر .. كل يوم » .

قال أخى وهو يقص على هذا الخبر : « وقد كان . تعلقت بها ، وصرت أراها كل يوم فنذهب نتمشى ، وعرفتنى أشياء كثيرة لم أكن أعرفها ، ولو استطعت أن أتزوجها لفعلت ، وقد أطلعتها على كل شىء ولم أخف عنها شيئاً ، ففهمت وعذرت ، وبقينا صديقين حوالى عامين حتى خطبها واحد من أبناء جنسها ، وأحسست منها زهداً فيه ، فأقنعتها بالرضا به إشفاقا عليها ، ورغبة فى الاطمئنان على مستقبلها .

ولكن هذا موضوع آخر ، فلنرجع إلى المانيكور ، وكانت يمناى لسوء الحظ هي التي صبغت أظافرها ، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبي تناولت يده لأقبلها ، فسألني :

ما هذه الحناء التي في أصابعك ؟ فأخبرته بما حدث ، وفي ظني أني لم أصنع سوءاً ، وما كنت أعرف ما هو المانيكور ، وقد قلت له : إني لما عرفت ما هو أبيت أن أصبغ أظافر يدى الأخرى ، ولكن وجهه أربد وهو يقول :

« وما فرق ما بينك وبين النساء الآن » ونهض فدعا إليه الخادم « العم محمد » كما نسميه وأسر إليه شيئاً فخرج ، وما لبث أن عاد ووراءه ثلاثة من الزبالين الأقوياء ، فأشار إلى فربطوني بالحبال ، وألقوني على الأرض ، وأنا من فرط الذهول لا أقاوم . وجاء أبي بخيزرانة طويلة وأهوى بها علي ، لا يتقي شيئاً ولا يبالي أين وقعت وماذا أصابت من بدني ولم ينقذني إلا خالتي (يعني أمي ، فقد كان يدعوها خالتي) فقد أسرعت وانحدرت إلي ولم تبال هؤلاء الزبالين ، ولم تعبأ بظهورها أمامهم سافرة وفي ثياب البيت ، وارتمت علي ، وجعلت نفسها بيني وبين الخيزرانة فضطر أبي أن يكف ولكنه أمر فسجنت في إحدى « المناظر » ثم خرج » .

وأتم أنا الحكاية فأقول إني توجعت لأخي وحزنت لما أصابه من الضرب الأثيم ، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع شيئاً ، وإلا حل به غضب أبي ، ولكني كنت طفلا لا أدرك هذا إدراكه ، فصممت على إخراج أخي من محبسه وفك وثاقه . وكان لابد من الحيلة ، ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخي الأصغر ، وجليلة بنت خادمنا ، وكان مفتاح « المنظرة » مع الخادم فلم نزل به نلاعبه ونتحين منه غفلة حتى سرقت المفتاح ، وأوعزت إلى أخي وجليلة أن يبعدا به عن فناء

البيت ففعلا ، ففتحت الباب وأعانى حل الحبال فجئت بسكين وقطعتها ، وأطلقت سراح أخى وقد ظل يحفظ لى هذا الجميل طول عمره .

وهنا ينبغى أن أذكر أنى عدت إلى الخادم فلسست له المفتاح فى جيبه وهو لايدرك ولا يزال هذا الخادم حيا ولا يزال يتعجب لأخى كيف وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التى كان موثقا بها ، وأن يفتح الباب ويخرج ، وكلما ذكر هذه الحادثة ، هز رأسه وقال : الله يرحمه ! لقد كان عفريتاً » .

وكان هذا أول سر حرصت فى طفولتى على كتمانه .

— ٤ —

قلت لنفسي بعد آن كتبت الفصول السابقة ، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة ، « اسمع ياهذا ، لقد رأيت أباك يضرب أخاك ، ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة ، ولم يضربك — كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتمل ذلك ، أو لأنك كنت أشبه بالقطة الأليفة أو كلب البيت الذى يتقبل منه أصحابه العبث ولا يرضون عنه أو يسرون به إلا إذا لعب وتشيطن وأظهر لهم نشاطه وذكاءه ، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا ، راجع إلى أن أمك حية ترزق ، وفى البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامى عنك وأخو لا كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبوكما لايسعه الا أن تثقل عليه الشعور الخفى بأن هذا الشاب يزحزحه شيئاً فشيئاً عن مكانه : وينزله يوما بعد يوم عن سلطانه ، وأنه هو الذى سيحل محله عاجلا أو آجلا ، كما حل هو محل أبيه — أى جدنا — وان كان على قيد الحياة ، وعسى أن تكون بواعث الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين ، شعور الابن بأنه هو الشاب ، وأن أباه قد شيخ ، كائنة ما كانت سنة فى الحقيقة وشعور الأب بأن ابنه هو ابنه فهو طفل بالغا مابلغ طوله وعرضه ، أو لا أدرى ما العلة والباعث الصحيح ، وانه ليخطر لى مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحداً منها وحده يقنعنى .

وخطر لى وأنا أحدث نفسى بهذا أن هذا التفاوت بين الأب والابن من المصائب . فنحن الآباء ، قد كبرنا فى نظر الأبناء ، ولا يمكن أن

يعد الأبن أباه إلا شيخاً هرما ، تقضى شبابه من زمان طويل ، ولا يمكن أن عليه وتعرى هو منه ، فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه ، ولا يليق به إلا حال الشيوخ الفانين ولو كانت الحقيقة أنه ما آنفك قويا كفئا للحياة .

وذكرت – وأنا أدير هذا المعنى فى نفسى – أنى لم أسمع ولم أر قط : فى طفولتى ، شيئاً – كلمة أو ايماءة أو نظرة – تشى بالحب بين أمى وأبى . وكان يخيل إلى أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب . وهذا خطأ . ولكنه هو الذى كان يبدو لى فى تلك السن الغضة . ولقد مات أبى وأنا صغير وخلف لى أمى فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة ، لم تخلع فيها السراد يوماً واحداً ، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب ، ومن أجل ماطابت به نفسا فى حياته ، ولكنى أظنهما كانا متحابين أيضاً فقد كنت أسألها فتبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى فى كهولتها الذاوية ، وألح عليها بالسؤال فتنهرنى ، وتزجرنى عما تظنه عبثا منى ، وكنت أغالطها أحياناً وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو « ماذا كنت تحبين فى هذا الرجل المزواج المتعب الذى جعل حياتك معه جحيما فائراً بالغيرة » فكانت تؤخذ على غرة وتقول ، قبل أن تفكر : « إنك لاتساوى الظفر الذى كان المقص يطيره من أصبعه » وترانى ابتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب ، وأحيانا تطردنى من مجلسها ، وهى تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لى « قم . طيب قم . كفى قلة حيا . » فأنهض طائعا وأميل على رأسها فأقبله فترضى عنى وتدعو لى فأقول لها ويدى على الباب .

« اسمعى . لم أعرف أبى كما ينبغى أن أعرفه ، فقد مات قبل أن أكبر ، ولكن القليل الذى عرفته مضافا إلى الكثير الذى سمعته منك ، يقنعنى بأنه « هو » لم يكن يساوى الظفر الذى يطيره المقص من أصبعك وعزيز على

أن أقول هذا عن أبي ؛ فقد كان على العموم رجلا فاضلا ذا كرامة ، وإذا كنت أبخسه حقه فذاك لأنك عندى بمنزلة لاتدانيها منزلة ، أنت خير الناس وسيدة الدنيا ، وكل من عداك هباء . وأسمعي أيضا . أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معي في الدنيا . مجرد شعوري بوجودك يرفع نفسي ، ويعصمني من كثير ، وما هممت بشيء إلا رأيتني أسأل نفسي — هل ترضى عنه أمي لو علمت أو لا ترضى — فأقدم أو أحجم تبعا لجواب السؤال . ولو خلت منك دنياى لما بقي شيء يصدني عن الشر والرذيلة ، ولست أطيق البعد عنك لحظة ولكني مقتنع أنه لو كان أبي حيا لما أمكن أن أحتمله ، ولا اطقت ان أعيش معه تحت سقف واحد ، ولعل ذاك لأنك — وأنت سيدتي — تدعينني أشعر أني أنا السيد ولكني أظن السبب أني أحبك وأجلك ، وأني مدين لك بكل ما جعلني كما أنا ، أطال الله عمرك .

ولكنه سبحانه ، لم يشأ أن يفعل .

كلا ، لم يكن للحب ذكر ، في بيتنا ونحن أطفال . ولكنه كان معي هذا موجوداً ، بين أبوى على الأرجح — وان كنت أنا لا أرى دلائله ومظاهره ، وبين جدى وجدتي على التحقيق . وكان جدى قد قارب المائة ، وجدتي قد ناهزت السبعين ، ولكنهما كانا كالطفلين ولم يكن أحلى من تناجي هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حال الطفولة وسذاجتها وطيبتها ، وكانا لايعبآن شيئاً بوجودى ، وهما كما يقول الشريف الرضي :

تساقينا التذكر فانثنينا كأن قد تساقينا الطلاء

وكان الذى يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصاً وحكايات قديمة ، مما وقع لهما وجرباه ، ولكن الحنو ، وعذوبة الصوت ، والذوبان ، وحلاوة اللمعة في العين التي انطفأ نورها أو كاد ، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة : « هل تذكرين ياحاجة .. » فتهز رأسها المصبوغ بالحناء

ويفتر ثغرها الأدردويومض السرور فى عينها ويشرق به وجهها الأحمر — فقد كانت بيضاء حلوة — وتقول « ايه » ممطوطه طويلة ، ولكنها « آية » الرضى والحمد لله والاغتباط بجمال الذكرى . لا الأسف والأسى ، فقد كان حب هذين المتهدمين من الدنيا ، إنهما معافيها ، وأن غرفه واحدة تجمعها ، وأن لها بنين وحندة ، كلهم أحياء وبخير ولله المنة ، وكنت أرى منها ذلك فأدرك أنهما مسروران وإن كنت لا أدرك كنة السرور ، وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غضنهما السن وحفرت فيهما أخاديد عميقة ، فأرتمى على جدتى وأطوقها وأقبلها ، فتضمنى وهى تقول ضاحكة : « إوع تفعصنى ياولد » ثم تهوى على رأسى أو خدى بفمها الفارغ وتقبلنى فيكون لقبلتها صوت كقولك « مق »

وأنا الآن رجل ، ولى زوجة وبنون ، لا بنات ، فقد أبت مشيئةالله أن يكون لى بنات على ايثارى لهن ، وأنا ابن هذا الزمن ، لا ذاك الذى عاش فيه أبى وجدى من قبله ومع ذلك أرانى أستحى أن أقول لزوجتى أنى أحبها ، وأشعر أنه لايليق بى أن أقول ذلك ، ولى كل هؤلاء البنين ، وأحس أن زمن الكلام فى ذلك قد فات وهو لم يفت فى الحقيقة ، لكننا جربنا وعانينا وفكرنا ، فعرفنا — عرفنا ماذا يحق للمرء أن ينتظر ، سحره ، وزالت فتنته ، وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس ومغالطتها وايهامها .

ويا ربما قلت لنفسى ، حين أخلو بها وتتدفق خواطرى فى هذا المجرى : « لماذا أخجل ان اقول لزوجتى انى احبها ، امام هؤلاء الأبناء . . » واقول فى جواب السؤال ان هؤلاء الأبناء يروننا كبارا ، ولايتوقعون منا ما هو متوقع من الشبان ، ولعلهم يظنون بنا اننا كنا فى صدر حياتنا كل شىء إلا شبابا ، ويهيجنى ذلك ويثير نفسى فأقول ساخطاً معانداً : « ولكنى لا انوى ان اجعل حياتى وفق ما يظنون ، قاتلنى الله ان فعلت ،

وأدخل على زوجتى ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان — من الأهل أو الغرباء — فأتعمد أن أنثنى بالحديث إلى ذكر الحب ، وأهم بأن أجرى مع العناد ، فأحس كبح الخجل ، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحه ، فيظن السامعون أنى أهزل ؛ وتعرف هى أنى أجد .

فلا فرق بينى وبين أبى ، وأن كان بين زمنينا كل فرق وما زلنا ، نحس اللجام على أشداقنا ، والأعنة الخفية التى تصدنا وتاوى رؤوسنا ، وتوجهنا وجهة غير التى تدفعنا اليها طباعنا وغرائزنا وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق بحمر وجه الزوجة إذا همست فى أذنها بكلمة حب أو لفظ يشى به وإن كان لا يصارح وما أعرفنى استطعت قط أن أقول لواحدة أنى أحبها بالغا ما بلغ جنونى بها ، فإذا شق على الكبح ونازعتني نفسى أن أقول ، قلت ولكن مازحا ، أو متظاهرا بالمزاح متصنعاً له لأشككها ، ولأنى استحى أن أنطق باللفظ ، أو على الأصح لأنى أشعر أنى إذا قلت الكلمة فقد صرت عبدها — أعنى عبداً للمرأة لا للكلمة — وأنها حقيقة إذن أن تتخذ منى حصاناً تركضه بين بين الوعور ، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما ، ولو كان من حرير ، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت : وأنا فى كل يوم أقيد نفسى وألزمها أشياء شتى ، ولا أزال قابضاً على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وهنا ، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زمامى فى يدى ، والأمر كله إلى إرادتى ، فإذا شعرت أن يداً أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلى ، وفقدت اتزانى وركبت رأسى ، وأكون واثقاً أن هذا خطأ ، وأنه عناد صبيانى ، وأنى لو وكلت إلى نفسي ورأيى لما فعلت إلا مايراد منى أن أفعل ولكن طبيعتى تغلبنى فأشقى ، بين دعوة العقل العاجز ودعوة الطبع الجامح .

والناس لا يضربون بنيهم فى هذه الأيام كما كان أبى يضرب أخى . وهم فى هذا على حق ، فإن الضرب ليس تأديباً وإنما هو ترفية عن الوالد ،

ووسيلة لاراحته من ثقل الشعور الذى يجيش بصدره ، فهو شيء ينفع الأب ولا ينفع الابن .

ودأب الناس فى زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويجنبوهم التنغيص ، وهذا جميل ولكنى أحس أنهم يبالغون فى الرفق ويسرفون فى اللين ، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغى وأخلى من المشاكل والعقد ، ومن كل ما يستدعى إجهاد الفكر أو مايستثير الشعور ويوقظ النفس ، فليتهم يضربون أحياناً — برفق أيضاً — ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد ، ليعرفوهم بأنفسهم ويكتشفوا لهم عن بعض خفاياها .

جرى هذا ببالى وأنا أكلم شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، ولم أكن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا فى شيء من الهندسة فوافقنى على رأى كان يعرف كما تبينت فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالباً فى مدرسة الهندسة وكان فنه ما خضنا فيه ، ومع ذلك لم يخالفنى ، ولم يصحح لى غلطى فإذا كان هذا لا يضرب حتى يدمى جلده وينسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيباً وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب مادام يعتقد أنه على حق — فمن غيره الجدير بالضرب . . وكيف تكافح هذه النعومة وذاك التطرى لتجعل من ابنك رجلا يعرف قدر نفسه ويكرم عقله . . أما أنا فسبيلى كسبيل أبى ، ولست أستعين « بالزبالين » ولا أنا أقسو قسوته ، ولكنى لا أحجم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجبنون أو يكذبون أو يبكون الغير « ما يبكى الرجل » وقد جاءنى واحد منهم وقال أن تلميذاً معه فى المدرسة ضربه ، فسألته عنه أهو أكبر منه .. وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه .. فكانت نعم هى جواب السؤالين ، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصاً وجيعاً وقلت له « ألم يكن فى

الشارع حجر تتناوله وتقذفه به فتفتح له قرنه . . قال « بلى » قلت « لماذا تجيئني باكياً وفي وسعك أن تنصف نفسك منه » . وأنذرته أني لا محالة قاتله إذا تكرر منه ذاك ، ولم يكن القتل ما أعني ، وإنما عنيت الضرب الأليف ، وقد فهم عني الطفل ، وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم ، فكفوا عنه وهابوه ، وقد احتججت بعد ذلك أن أجعل جرأته غير راجعة إلى مجرد الخوف مني .

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التي تفضي إلى التخنث .

— ٥ —

حليمة وعم محمد

كان خادمنا رجلا يدعى « عم محمد » لايعرف أحد من أين جاء — حتى ولا هو يعرف ، وقد سألته من أى بلاد الدنيا هو ، فشوّر بيديه وهز رأسه ولم يجب ، ولعله نسى ، فقد علت سنه جداً ، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبى لا يفقه ، فقد كان لكل أسرة خادمها الذى نشأ وترعرع ، وشاب أيضاً ، فى ظلها ، ولم يكن أحد ينضو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة — جدى وأبى ، من الرجال ، وجدتى من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم « عم محمد » وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خدمهم فى ذلك الزمان .

ولا أذكر كيف كان وجهه فى حداثتى ، فإن مسافة الزمن بعيدة ، ولكنى أنظر إليه الآن — فإنه لا يزال حياً يرزق — وأرى كيف كان يمشى معتدل القامة كالسيف يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجليه ، وكيف أنه لايمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئاً حتى فى هذه الشيخوخة العالية وكيف أنه لايزال يشرب « البوظة » التى أعرفه — مذ عرفته — كلفاً بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله فيخيل إلى أنه كان دائماً هكذا — بشاربيه الخفيفين ، وأسنانه القوية التى لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة . ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر ، وحذائه الأصفر الباهت الذى يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه

بطرف المعطف العتيق الذى خلعته عليه منذ خمسة عشر عاما ، ويأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق .

وكان عمله مقصوراً على ساحة البيت وما فيها من غرف أو « مناظر — كما كانت تسمى — وعلى قضاء الحاجات من السوق ، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السيداب فإن لهن خادمتهن التى لا ينبغى لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت وكانت حليمة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين ، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة ، وكانت هى التى تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شىء فتقف على آخر درجات السلم وتنقر على الباب فيجئ إليها ، فحدث ما كان لابد أن يحدث — أحبها وأحبته .

وأقبل عم محمد يوماً على جدى ، وهو جالس على كرسيه فى الدهليز وفى يده نبوته وشفتاه تتحركان بالتلاوة ، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاته إليه ، فلما فعل ، مال عليه وأسر اليه أنه يطلب يد « حليمة » فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين ، ووعد أن يخاطب أبى فى الأمر وأن يحمله على الموافقة .

وقد كان — تزوجا ، وصارت حليمة ، تنتقل فى الليل إلى غرفة « عم محمد » فى البدروم كما يسمى فى مصر ، أو السرداب كما يسمى فى العراق .

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر ، وحصيرة ملونه وبساط قديم مما كان فى البيت ، وكانت حليمة هذه قوية جليدة لا تفتر ولا تهن ، فكانت تعمل طول النهار وشطراً من الليل ، فى البيت — تكنس وتمسح وتغسل ، وتنفض وتشيل وتحط ، وترتب ، وتغربل وتعجن وتخبز وتساعد فى المطبخ ، وتطلع تنزل ، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت

إلى « عم محمد » وبقيت معه إلى الفجر ، فتنهض لتوضئ الشيخ وتعد له « الشبوك » والقهوة . .

وحملت حليمة ، فعظمت بطنها ، فأرادوا أن يترفقوا بها ، وأن يعفوها من عملها الشاق حتى تضع حملها . ولكنها أبت وظلت تروح وتجئ وتشيل وتحط وتقوم وتقعد ، وهي مسرورة وزاد وجهها إشراقاً ولمعت عيناها بنور البشر والجذل .

وكان جدى يصعد بعد الغروب بقليل . أما أبي فكان يترك المكتب ليصعد أو يخرج ، بعد صلاة العشاء ، وينصرف الكاتب ، ويوصد الباب ، ويصفق عم محمد فتطل عليه حليمة من إحدى النوافذ — فما بقى من هذا بأس بعد انصراف الرجال — فيسألها « عاوزين حاجة . . » فتستفسر ثم تخبره ، ويطمئن فيخرج متسللا ويغيب ساعتين أو ثلاثاً ثم يعود وهو يتطرح من السكر . وكان لا يشرب إلا البوظة وكان جدى ينهاه ويعظه ، وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يرعوى ، حتى يئسا من صلاحه فأهملا أمره وتركاه للأيام ، فلم تزده إلا حباً « للبوظة » .

وقد سألته مرة « ألا يمكن أن يزهدك شئ في هذه البوظة . . »

فأجابني بسؤال « أهي حرام . . »

قلت « من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم »

فنظر إلى مستفسراً مستوضحاً فقلت أعني أنك أصبحت تفني . من طول ما عاشرت أهل القلم . ولكن قل لى . إنك تشربها منذ نحو سبعين سنة ، أفلم تسأمها . سبعون سنة طويلة . إن المرء خليق بعدها أن يمل الحياة ، فكيف بالبوظة . .

فقال معترضاً « سبعين سنة إيه ياسيدى » .

قلت « معذرة . لندع السن . ولكن ألم تسأم » .

قال « لم يبق لى ما أتسلى به سواها . »

قلت « وحليمة »

قال « حليمة . الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم »

فأقصرت ، وبودى أن أسأله « ألا يزال يحبها » .

وكانت ليلة أحياها « عم محمد » بالسهر فى البوظة وهو آمن ، فقد كان جدى نائماً ، وأبى فى بيت زوجته الأخرى ، فلما عاد وتطرح إلى غرفته ، ألفى حليمة راقدة ، ولكن عينيها مفتوحتات ، وإلى جانبها شىء مغطى بملاءة ، فوقف عند السرير ، ونظر إليها مستغربا ابتسامتها وكانت عادتها أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون فى خدمته حتى ينام فلما طال تحديقه فيها ، تحت الملاءة ورفعت ما تحتها ، على كفيها ليراه ، فأفاق وذهب عنه خمار السكر ، وهوى على ركبتيه ، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وراح يبكى — بكاء الفرح لا الحزن ، فوضعت حليمة طفلتها ، وجلست ، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها ، ونظر إليها وقال .

« لو كنت أعلم لما خرجت »

قالت « خروجك كان أحسن .. ماذا يصنع الرجل فى هذه الحالة .. »

فسألها « كيف .. من كان معك .. »

قالت « لا أحد .. لم أخبر أحداً .. ما الداعى .. »

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت ، لتقوم بخدمته كعادتها ، وحاول هو أن يمنعها ، فسخرت منه ، وسخنت له الطعام وقدمته إليه ليأكل ، وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة ، وبعد أن يرتوى من البوظة فعكف على

طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها ، حتى ليجيئها المخاض فتتشدد وتحتمل آلامه فى صمت ، وتضع وحدها وبلا معين . وبعد ساعة أو ساعتين ترجع كما كانت ، لا فاترة ولا متهافتة ولا مسترخية وجال بخاطره أن حليمه آية من آيات الله . وأنه سعيد بأن تكون زوجته ، وحدثته نفسه : على ماروى لى أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه ، أن يكف عن معاقره البوظه ، ولكنها كانت نجوى ليس إلا .

وقال لها وهو يمسح يديه فى الفوطه « يجب أن تستريحى غدا على الأقل»

فاستغربت هذا الاقتراح وقالت « استريح . أنت مجنون .. »

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة ، فكانت ترضع طفلها وتتركها وتواصل عملها المتنوع .

ولا تزال حليمة إلى اليوم — وقد جاوزت الستين — أقوى وأقدر على العمل من عشر فتيات فليس أعجب من « عم محمد » الا امرأته التى لا تكل ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة — ابتسامة العطف والرضى والتسامح ، وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها . ورضاها وتسامحها، وكان حسبى منها فى كل حال أن تنظر إلى بعينيها النجلاوين ، وأن أرى ثغرها المفتر فتسكن نفسى ويشيع فى صدرى الاطمئنان ، ويعمر اليقين قلبى ، ولا يسعنى إلا أن أجيبها بابتسامة . فتهز رأسها على مهل وتربت لى على كتفى وتمضى » .

صدق عم محمد فإن حليمة آية . . . .

- ٦ -

الحادثة الثالثة أن « جليله » بنت حليمة وعم محمد – أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحوراً . وبعد سنوات وسنوات طويلات المدد ، قرأت أن نيرون أضرم النار فى رومية – عروس الدنيا يومئذ ووقف على تلها فى حاشيته المستهترة ، وفى يده قيثارته يعزف عليها ، وعيناه على الضرم المتأجج والدخان المتكاثف ، فاستطعت أن أفهم ، ولم يعيني أن أدرك سحر النار وفتنة هولها ، وكان الذى تمثل لخاطرى وأنا أقرأ ذلك .. لارومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل « جليلة » وقد ضربت النار عليها سرادقاً .

ولم تطلق المسكينة إلا صيحة جزع واحدة ، ثم وقفت كالتمثال ، وذهبت النار تأكل ماعليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطرى جمرة مضطرمة .

وكنت واقفاً على سلم البدروم – مسمراً هناك – وعيني عليها لاتتحول عنها ، وفى مسمعى من اللهب الخفاق اللامعان مثل الدمدمة والتدويم ، وفى أنفي رائحة اللحم المشوى وعلى وجهى صهد الحر .

وكان الوقت شتاء ، والبدروم يكون فى الصيف رطبا فكيف به في زمهرير الشتاء . . وكانت جليلة قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التى تشبه القبور ، فشرعت تضرم الفحم – أو السن كما يسمى تراب الفحم – فى الموقد لتدفأ به ، ولم تكن عندها منفاخ تعجل به إيقاد النار وكانت ترتعد وتنتفض من البرد ، وكان مصباح الغاز مضاء ، فتناولته وانحنت به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسي الذى يتدلى منه الشريط فى الغاز ولم تر أن

تنزع الزجاجة وتطفيء الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم ، فسال منه شيء على ثوبها وهي لا تدري ، أعادت الغطاء إلى مكانه من المصباح ، ووضعته إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عوداً وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة ، وكانت حانية عليه ، فردت وجهها بسرعة ، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة ، فانقلب المصباح واشتعل طرف الثوب الذي كان مسفسفاً بالبترول .

وليس هذا خيالا أتخيله فقد رأيته كله بعيني ، وكنت قد غافلت أمي وحليمة ، وانحدرت وراء جليلة ، وفي مأمولي أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلا ، فقد كنت مشغوفاً بها ، وكانت هي تأنس بي وتهش لي ، ولا تضن علي بما تعلم — مما سمعت أو رأت أو خطر لها . وكنت على عتبة الباب ، وكنت أهم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلا إليها ، فرأيتها تمشي إلى « الصفة » وتعود بالمصباح في يدها ، وألهمت أن أقف حيث كنت — على العتبة — فلم يفتني شيء من الفاجعة .

وألفيتها تهوي إلى الأرض ، والنار حولها ، فأفقت وأرتددت راجعاً إلى ساحة البيت : ورحت أصيح ، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك جليلة فإنها تحترق . وسرى الخبر سريان النار في الهشيم اليابس ، وكان أخي الأكبر في البيت ، فنزل مع النازلين ، ورأوا أن جليلة قد أكلتها النار ، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق ، فقد امتد لسان النار إلى الحصير والسرير وسائر ما في الغرفة .

وكنت بينهم ، أروح وأجيء إلى حيث أراهم يروحون ، ومن حيث يجيئون ، ولا أعمل شيئاً ، وكانوا مضطربين وكان لغطهم كثيرا وعالياً ، وكان النساء يبكين ويولولن وفي أيديهن الطشوط والأباريق ، وأخي يتناولها منهن مترعة ويصب على النار ، ولا يفتأ يسأل عن « محمد » — « ابن الكلب » أين غطس في هذه الليلة السوداء ؛ ويتوعده بعلقة ، ويقول

ليته كان هو الذى احترق ، وبقيت جليلة ، فتقول حليمة — عفى الله عنها « آه والنبى » . وترسل الصوت مجلجلا فى سكون الليل بالنواح على بنتها ، ولا تكف عن ذلك ، وعلى الرغم من الحرقات التى تعانيها لاتتوانى عن ملء الطشوت وحملها إلى أخى .

ورآنى أخى كالكلب الذى لا يترك قومه ولا ينفك يجرى معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكهم وهو يريد أن يعرب بخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه ، فزجرنى وطردنى وأمرنى أن أصعد .

ولكنى لم أطع — نعم نأيت عن البدروم ، ولكنى بقيت فى فناء البيت وكيف أصعد إلى فوق . وكل من فى البيت قد ترك هــذا الفوق إلى تحت . . وكيف أكون وحدى فى مأمن من المخاوف التى كظوا لى رأسي بصورها فيما كانوا يقصون على كلما أرادوا تنويمى . . كأنما كان خير ماينيم الطفل هو هذه المفزعات .

وجاء أبى : فقد دعى من البيت الصغير ورآنى فى الساحة وحدى ، فأقبل على يسألنى بصوته الهادىء المتزن النبرات « أنت هنا » فبكيت . . كأنما فتح لى هذا السؤال منفساً فتفجر ما كان محتبساً فربت على كتفى ، ومضى عنى إلى البدروم ، فألقي أهل البيت جميعاً جالسين على درجات السلم .

وكان لا بد أن تأتى الشرطة ، وأن يجرى التحقيق ، وكانت النار قد أطفئت ، فذهب بى أبى إلى المكتب ولحق أخى بنا ، بعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت ، وكان الشرطى أخوف مانخاف نحن الصغار ، بعد العفاريت والأمساخ ، وغير هذه ، وتلك من المرعبات . وكان الذى نعرفه هو أن العسكر عدو لدود لخلق الله ، وأنه مجعول للقبض عليهم والزج بهم فى المحابس ، وأن « الكركون» — كما كنا نسمى مركز الشرطة — ليس

أكثر ولا أقل من سجن فظيع ، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه ، فشرع أبي يذهب عني الروع ويطمئني ، ويروضني على السكون إلى لقاء هؤلاء الشرطة وغيرهم . ويفهمني أنه ليس على أكثر من أن أرى لهم ما رأيت ، ويؤكد لى أني سأكون موضع عطفهم ، وأني سألقى منهم كل خير ، وأنه لن يصيبني منهم سوء ، فنسيت وذهلت عن النار التي اشتوت بها جليلة ، وعن فجيعتي فيها ، ولم أعد أفكر إلا فى هؤلاء الشرطة المخوفين الذين سأقف أمامهم وأسأل وأجيب . .

مضت على هذه الحادثة أربعين عاما . ولكني لا أرى أثرها يمحى أو يبهت . وليس أبغض إلى ولا أقدر على أفزاعي وأطارة عقلى من النار ، ويمضى شتاء بعد شتاء ، وتحتاج إلى أضرام النار فى الموقد للتدفئة فيسألني أهل البيت فأصيح بهم « يا خبر أسود ! ! لا لا لا . . حاذروا » وترتفع قبل عيني جليلة « فى سرادق من اللهب الخفاق .. »

ويلحون على ويقولون أن البرد قارس، فأروح اتفلسف وأقول لهم أنهم بله ، وأنهم يضعفون أجسامهم بتعويلهم فى المقاومة على الثياب والنار ، وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا فى التوقى ، ولم يجعلوا معولهم فى التماس الدفء على شيء أجنبي منهم ، وأقول لهم أيضا أني أضعف منهم جميعاً ، وأنحف وأحوج إلى وسائل الوقاية، ولكني أحتمل ما لا يحتملون . فلماذا . . لا سر هناك كل ما فى الأمر أني لا أكثر من الثياب ، ولا أتخذ المعاطف إذا وسعني أن استغنى عنها ، ولا أستعين بالنار : وأذكر لهم أني كنت فى صدر أيامى ألف رأسي عند النوم فى فوطة كبيرة وألبس ثيابا من الصوف حتى فى وقدة الصيف المحرقة ، فكنت لهذا طول عمري مزكوما ، وكان السعال لا يترك لى راحة فى ليل أو نهار ، ثم ضاق صدري ، وحزنت على نفسي وقلت ، إذا كان هذا حالى فى شبابى ، فماذا عسى أن أكون فى الكهولة والشيخوخة . . وكان هذا يسود الدنيا فى عيني ويغريني بالتشاؤم .

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق، فى شعرى ونثرى ، ويئست فتمردت وقلت أنه لن يصيبنى شر مما أعا ، فخففت ، وصرت إذا نمت أخلع ثيابى جميعا ولاأبقى منها إلا الكفاية للستر . أى الجلابية ليس إلا ، وكان الأوان يسمح بذلك ، فقد كان الوقت صيفاً . فلما جاءت مقدمة الشتاء ، وسعنى أن استغنى عن الملابس الثقيلة التى أعتدت أن أتخذها ، ودخلنا فى الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف ، ولكن بقيةمن الحذر القديم جعلتنى أحرص على حملة ، ولكن على ذراعى ، عسى أن احتاج إليه فى الليل . وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة ، أطل أدافعها وأقاومها، وأرجئ الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه ، وأقول لنفسى « نصف ساعة آخر . لن يقتلنى نصف ساعة من البرد » ثم أرجىء الأمر مرة أخرى وهكذا ، حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له مادمت لا ألبسه ، فصرت أتركه فى البيت ، وأن لى الآن لمعطفا ، ولكنهقديم .. قديم حتى لقد نسيت من طول عمره متى فصلته ، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة ، بل ليس حتى للزينة ، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر فى شبر وخجلت أن أبعث به إلى الرفاء ، ولم أر أن أكلف نفسى ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه فتركته ، وأمرى إلى الله ، وأمره إلى الفيران .

أما الشرطة فقد زايلنى الخوف الصبياني منهم . فما يسع من يشب عن الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لايملكون ضراً ولا نفعا ، وأن الأمر فيهم إلى القانون وأنهم ليسوا أداة إرهاب — أو لا ينبغى أن يكونوها — بل أداة حماية للناس . ولكنى مع ذلك أكره أن أدخل مركزاً من مراكز البوليس وانفر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغنى عن الالتجاء إليهم ولقد سرقت خادمة كانت عندى أشياء — أو هذا هو المرجح والذى تشير إليه القرائن جميعاً — فقلت غفر الله لها ولا أحوجنا إلى البوليس ، وهنيئا لها ما أخذت ولا عذبها الله به ، (فما هى بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة ، وهل ينفعها ما حملت إلا قليلا . وسينتهى بها الأمر إذا اعتادت ذلك ،

إلى الشقاء المحقق . فهي أحق بالعطف . وأولى بالرحمة ولو أنها لم تهرب بما حملت ، لحاولت أن أعالجا وأن أفيء بها إلى الخير ، ولكن الأمر خرج من يدى بفرارها ، فالله هو القـــادر على إنقاذها من ذلك المآل المخيف الذى أتوقعه لها .

ولى بين رجالى البوليس معارف وأخوان أحبهم وأكبرهم ، ولكنى لا أحب أن أحتاج إليهم ، ولست أكره مجالسهم ، ولكنى أحس غضاضة حين أكون مع واحد من رجال « السلطة » وأحب أن يكون غيرى مثلى – لاسلطان لهم على خلق الله . ولعل هذا بقية من أثر النشأة الأولى على أنى لست على يقين من هذا فقد تكون لهذا الشعور عال(أخرى خفية راجعة إلى آرائى ومزاجى .

— ٧ —

لا أعرف ما سر حبى للحى فى وجوه الناس ، غيرى ، ولكنى أعرف أنى ما رأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخلاة إلا نازعتنى نفسى أن أجعل لها من أصابعى مشطا . وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبث بها ، فان الناس فى زماننا يحلقونها أو يقصونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستغناء به عن الحقيقة الخشنة أو الشائكة ولن تجد أحداً فى هذا الزمن يغضب إذا أحفى الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منفوشة ذهب بها إلى برلين ليشترك فى تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك. وقد احتفظ بجبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة وأخطر الفوضويين . قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق . وذهب صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يفرغ من هذا الأمر ، فما راعه إلا صياح وزعيق لا يكونان فى برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألفى الشيخ واقفاً وسط الدكان والفوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلا بالعربية الفصحى ، والحلاق مبهوت فسأله صاحبه عن الخبر فقال « خبر ، أنظر .. » وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغابة الكثيفة اللقاء قد ذهبت بقدرة قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغابة على خده الأيسر هائجة كما كانت ، فلم يسعه إلا أن نضحك ، ثم عالجه حتى رده إلى الهدوء والسكينة وسأله (ماذا قلت للحلاق ..)

قال الشيخ . (أنه رطن لى ولكنى فهمت أنه يسألنى ماذا أبغى ، ولم أدر كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتى وأشرت بيدىي أن سوها — هه — أى بعض الشيء قليلا جداً ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها) .

وسأل الحلاق كيف حدث هذا الغلط فقال أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ اليها وقال (هاف) أي النصف فهو لم يجر عليها ولم يجاوزها ما طلب .

كلا : لا يغضب أحد فى هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جار المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنظر لحية حقيقية ، أو تتاح لى فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك فى حداثتى بأكثر من نصيبى العادل ، وكان حسبى لحية جدى . أفتل شعراتها أو أثنيها وأدسها فى أذنه فينتفض ويصيح بى ويطردنى فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدى شعرت بأن خسارتى جسيمة ،وأنى فقدت مالا أرى عنه عوضا ، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء أخو جدتى ليعزينا ، فأسكناه وكنت أنا أشدهم الحاحا عليه وتعلقا به ، وكان قصيراً فلحيته تبدو أطول مما هى فى الحقيقة فتسليت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوساً على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقا والسبحة فى يديه ! وإذا به ينتفض قائما ويعلن الينا عزمه على السفر . فاستغربنا وسألته جدتى :

« ماهذه المفاجأة ؟ »

فقال « الحقيقة ياحاجة أنى سمعت صوتا كصوت أبى يدعونى »

فزاد تعجبنا وقال أنى « أبوك ياخال .. أبوك يدعوك .. كيف تقول.. أين أنت من أبيك وبينكما ركوب خمس ساعات فى القطار ..

فقال « نعم يدعونى . لقد سمعت صوته واضحاً جلياً ينادى : يا عمر ولا بد لى من السفر فما أشك فى أن به حاجة إلى .. »

وأصر على السفر ، وأبى أن يبقى ، فاستودعناه الله وأرسلنا معه « عم

محمد» بالحقيبة إلى المحطة وفى مساء اليوم التالى جاءتنا منه برقية ينعى إلينا فيها أباه أى جد أبى .

ومن تمام القصة أقول أنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجد كان راقداً ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية « يا عمر » ولم يزد .

وكان هذا الجد معدوداً من القوم الصالحين ، وكان يلبس عمامة — كما لا أحتاج أن أقول ، فان الصالحين لا يكونون على ما يظهر ، إلا من أصحاب العمائم ولكن لفتها كانت خضراء ، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان السيد محمد هذا قويا ، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية ، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة . ولم يركب فى حياته قطاراً ولا تراما ولا مركبة . وكان إذا زارنا فى القاهرة يجيء على قدميه ، وعلى كتفه الخرج الذى فى شق منه ثيابه ، وفى الشق الثانى هدية من التمر أو الجبن « الحلوم » أو غير هذا وذاك مما يرى أن يهديه إلينا . وكان أبى قد رزق قبلى بولدين . ماتا . فلما جئت أنا إلى الدنيا ، خاف أبواى أن أموت أيضاً . وصارا يجزعان كلما أصابنى برد أو غيره . وأنى لهما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أنى ممن قيل فيهم أن « عمر الشقى بقى » واتفق أن جاء هذا الجد للمبروك فاستكتبوه لى حجابا ، فخطط شيئاً فى ورقة ، أو كتب آيات من الكريم : لا أدرى وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها : وقال علقوها له جنبه : فغلفوها فى قماش للتنجيد . أى لكسوة المراتب وبعثوا بها إلى حذاء : ولم يكن حذاء فى الحقيقة : وإنما كان رجلا يصنع المراكيب فجلد الحجاب ، وجعل له عينين للخيط : وعلقوه لى فصار كالحجر فيما أحس حين أرقد على جنبى :

ولم يفارقنى هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتى إلى رحمة الله :

حتى بعد أن كبرت ودخلت فى مداخل الرجال وتزوجت ، كانت تصر على لبسه . وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة . فاذا عرفت ذلك نظرت إلى نظرة أسف وعتاب وإشفاق . وكان لبس الحجاب يثقل على نفسي وكنت أنفر من ذلك نفوراً شديداً . ولكنى كنت أقول لنفسى أن جدتى كبيرة السن وأنها فجعت فى ابنها وأنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تفجع فى حفيدها الذى تتعزى به . فماذا على لو أرضيتها وسررتها وتركتها تقضى ما بقى من عمرها فى راحة واطمئنان . ثم أنى ما أحببت أحداً قط مقدار حبى لها ولأمى فكنت أشعر أن قلبي تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع . ومن أجل هذا استخرت الله وتوكلت عليه وتركتها تفرح وتطمئن بالحجات على جنبي . وكانت إذا رأتني مقبلا عليها لتحيتها كالعادة تبتسم لى بقمها الأدرد . وتمد يدها إلى جنبي لتتحسسه ، فأضحك وأقول « لا تخافى » أنه ما زال فى مكانه . وما أبقيه إلا لأنه يسرنى أن أراك راضية قريرة العين « فتمسح لى رأسي وتدعو لى بخير .

فلما ماتت ، تركت الحجاب . وكانت أمي تقوم فى اول الأمر مقامها في الالحاح على أن أحتفظ به فقلت لها يوما « ياستى . أنك عاقلة ، فبينى لى لماذا ينبغى أن ألبس هذا الحجاب » .

قالت : « أنه بركة من جدك » .

قلت : « صدقنا وآمنا . وأنعم بجدى وأعظم ببركته . ولكن ما جدوى أن أضع حجراً . »

فأطرقت فقلت : « أنا أعلم أنك تخجلين أن تقولى أنه يقينى السوء ويحمينى من الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك . أليس الرب واحد والعمر واحد . أليس ماقدر يكون » .

قالت : « آمنت بالله »

قلت : « كنت أعلم أنك ستوافقين على اطراح هذا الحجاب . ولكني أحب أن احتفظ به للذكرى فاحفظيه لى عندك » .

فأخذته ، وبقى عندها مصوناً حتى ماتت فقيل لى أنهم وجدوا حجابا بين أشيائها . وسألونى ماذا يصنعون به .. فأوصيت به أن يحفظوه فانه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الأنسانية ففعلوا ، ولكنى لم أطلب أن أراه ، والحق أقول أنى لم أقو على النظر اليه يومئذ ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابنى فى حياتى وأعمقه أثراً فى نفسى ، ولقد أبيت إلا البقاء فى البيت الذى وافاها الأجل فيه ، لأن كل مافيه يذكرنى بها ولكنى كدت أجن ، فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد ، ولكنى كنت أراها فى كل مكان ، وأبصرها تروح وتجىء وأسمع صوتها ، فكأنها لم تمت وأن كان غيرى لايعرف ذلك ولا يفطن اليه ، وتلفت اعصابى فكانت هذه الخيالات تسرنى احياناً ، واحياناً أخرى تفزعنى فاضطرب وارتعد ، وثقلت على وطأة الهواجس والوساوس وطال الأمر فلم أر علاجاً أحسم به هذا البلاء الا أن أفارق البيت ، وأنأى بنفسى عن مواطن الذكرى ومثارها على قدر الامكان ، وأقول على الامكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له يهرب من نفسه .

— ٨ —

بعد وفاة جدى أدخلنى أبى المدرسة القربية — لقربها من حينا ، وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التى يجرى فيها الترام « الجديد » والتعرض لاخطاره ، فقد كانت ضحاياه كثيرة فى تلك الأيام .

وكانت للمدرسة بوابتان — واحدة على شارع القربية — أى صانعى الخيام . وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جداً . وقد بقيت بها أربع سنوات : ولا أذكر أن أحداً خطر له أن يجعل لأبواب الحجرات فيها مشابك ، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحاً ، يجئ بحجر يسند به الباب . ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخاً أعور كان يعلمنا « الخط » فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب ، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان ، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهذا الحجر .

ويكفى للتعريف بالمدرسة أن أقول أن ناظرها كان « وقفاً » عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه أنه « جاهل جاهل ، لكن أدارجى » — أي أداري . وأنصفه فأقول أنه كان وجلا طيباً ، وأنه لم يسئ قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش — أى خادم — وقد أنعم عليه فى السنة التى دخلت فيها مدرسته ، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهى لا تخول لصاحبها لقب البك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه : وقد جمعونا يومئذ صفوفا فى ساحة المدرسة ، وأبلغونا خبر الأنعام على « سعادة البك » وهتفوا فهتفنا وراءهم

« أفندى مزشوك يشا » وهي عبارة تركية معناها الحرفي « يعيش أفندينا كثيراً أو طويلا » .

وكان الناظر جارنا فهو يعرف أبي ، ولهذا كان يسميني « ابن عبدالقادر » ولكنه كان أخنأ فكان ينطق الباء ميا فيا يخيل إلينا . وكنت على صغري قد فطنت إلى مواطن الضعف في نفسه .

وأدركت أن « سعادة البك » مفتاح كل باب مغلق ، فلا يكاد يسمعني أقول له « ياسعادة البك » حتى يهش لى ويهز لى رأسه راضياً ويعفو عن ذنبي أو يجيبني إلى ما أطلب . وكنت دقيق الجسم صغيرة جداً — وما زلت كذلك إلى اليوم — ولكنى كنت حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة . وكان قلقى واضطرابي يثقلان على المدرسين فيضربونني أو يشكونني إلى الناظر فتنجيني « سعادة البك » من العقاب .

وكان معلمنا في السنة الأولى شيخاً قصيراً عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما — وكان وجهه الضخم فيما يبدو لى — في حجم صدره . وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن . وكانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالحبر ، ثم نعود بعد حفظها فنمحوها بالأسفنجة ونكتب غيرها . وهكذا . فجمع الشيخ منا ملاليم اشترى بها « ماجورا » أخضرا كان يملؤه ماء لنغمس فيه الأسفنج ونمسح الألواح . وكانت أدراجنا دكة كبيرة تسع ستة من الصبيان تتصل بها أدراج بعلوهم . وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فنتصايح ونضوضيء ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الدكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل في مكانها من مقعد الدكة أو لوحها .

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كثيراً ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادى الفراش ويناوله قرشاً فيشترى فولا مدمساً وزيتاً ورغيفاً ومخللا . ويضع له ذلك كله على النافذة التى بين الحجرتين ويظل الشيخ متردداً بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل . وكان ربما نطق وفمه محشو . فنضحك : فلا يبالى . فقد كان حليما رحيما لا يقسو علينا ولا يعنف بنا ، وأحياناً يلمح الناظر مقبلا من بعيد فيشير إلى أحدنا وهو يحاول أن يبلع اللقمة العظيمة ويتكلم فى آن معا ، ويدرك الصبى مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقى من طعام الشيخ ثم يرتد — وثبا من النافذة — إلى مقعده ويمر الناظر بسلام ، فيقول الشيخ لأحدنا ، وهو يشير إلى النافذة « هات . هات » .

وكانت ساحة المدرسة واسعة جداً ، فكنا فى أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب مابدا لنا أن نلعب — الكرة أو سواها — وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور « ثمر الدوم » وهو ثمر ليفى قليل الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا :

أما فريق كرة القدم ، فكان شيئاً رهيباً . ذلك أن أعضاءه جميعاً رجال كبار . وكان بعضهم لا يعد تلميذاً بالمدرسة إلا على المجاز . وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم ، وكان لاعبا مشهوراً ، وكان اسمه « سليمان » ولكنا كنا ندعوه « سالى مان » لأن وجهه كان أبيض مشرباً بالحمرة كوجوه الانجليز . وكان يدخن « البيبة » فما كنا نراه إلا وهى بين شفتيه ولا أدرى ماذا كان مبلغ علمه بالانجليزية ، فقد كنت صغيراً . ولكنى أدرى أنه كان يتكلف رطانة كرطانة الانجليز . وكان له زميل فى فريق الكرة اسمه « أبو تيفه » — أى توفيق — وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يلعبان إلا إذا شربا خمراً . فأما « سيللى مان »

فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكنى لا أصدق أن « أبا تيفه » كان يفعل ذلك أى يسكر قبل اللعب ، فقد كان وديعاً كريم الشيم ، وهادئاً رزيناً : ولا نكران أن هذا لا ينفى الولوع بالشراب ، ولكنى لم أر الرجل قط — فقد كان رجلا لا صبياً مثلنا خارجا عن طوره ، لا فى ساحة اللعب ولا فى المدرسة . وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيراً .

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة ، فكانت مائدتهم حافلة مثقلة ، بل كانت المدرسة تشترى لهم « المخلل » فى سلطانيات صغيرة لتشحذ رغبتهم فى الطعام وكان عملها هذا يستدعى منها التساهل مع بقية التلاميذ ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفى يده القرش أو الملاليم ويصيح بعم أحمد « الطرشجى » هكذا « هات شوية بنكلة » أو بأكثر أو أقل ، فيناوله سلطانية فيها ماطلب فيرتد بها ، ويظل يحملها حتى يدق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام ، ولم أر مثل هذا فى مدرسة أخرى من مدارس الحكومة .

— ٩ —

مرض أبى بعد شهور قليلة من دخولى مدرسة القربية الحكومية ، وصار كل من فى البيت يلغط بأن زوجته التركية سمته ، أو هى لم تسمه ، وإنما دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ ، بمالا يعرف أحد ، ليحبب أبى فى هذه الزوجة ، ويبغض إليه أمى ، وكان أبى يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الغيرة ولكن أمى كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبى عنيف فعنى أخى الأكبر بما أشيع من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها ، فراقب بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوما شيخا يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد ناراً ، وذبح أرنبا ، وكتب على لحمه كلاما وعلقه فى الهواء ، ورمى فى الموقد بخوراً فأطلقه وراح يقرأ ويعزم ، وأخى يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبى على ذلك فأغلق عليه الغرفة وأوصد باب البيت أيضاً وحمل مفتاحه معه وذهب فجاء بأبى وأراه ما رأى فشق الأمر على أبى فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدرى بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور كان الطبيب يعوده فيها كل بضعة أيام مرة ، ولكنه كان فيما يبدو لى صحيحاً معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا ينفك يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود — السمك المسلوق والأرز والفاكهة — وكل ماتغير من أمره واختلف من حاله أنه كف عن النزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخى كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع عليها ويشير بما يرى .

وعدت من المدرسة عصر يوم ، فلقيني الكاتب على الباب وسألني «أين عم محمد» فقلت لم أره ، فأخبرني أنه ذهب ليجيء بي من المدرسة لأن أبي يريد أن يراني فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق .

ودخلت البيت فألفيت في فنائه نفراً من أقاربنا جلوسا على الكراسي فسلمت فقال أحدهم « أصعد . أصعد . أبوك يطلبك . »

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبي ، وأنا أنتظر أن أراه قاعداً على « الكنبة » فإذا به راقد على مرتبة مفروشة له في وسط الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدرت عيني في الغرفة ، فألفيت النساء من أهلي قاعدات حول المرتبة ، مطرقات ، وفي أيديهن مناديل ، يرفعنها إلى عيونهن ويكفكفن بها الدموع ، فنظرت إلى أبي ، فأشار إلى بعينيه فانحنيت عليه فقبلني ، ونهضت ، وأنا غير فاهم وهممت بأن أدور وأخلع ثيابي ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأمي تتناولني وتميل على رأسي وهي تقول « أبوك مات » .

أبي مات !

لم أفهم هذا ، ولم يحدث الخبر في ذهني صورة ما ، فقد رأيت أبي ، كما اعتدت أن أراه ، لم يتغير وجهه ، ولا نظرته ، ولا ابتسامته ، ولم يختلف شيء سوى أنه راقد على مرتبة ، بدلا من السرير حتى بعد أن ولولت النساء ، رددت عيني إليه ، فرأيت ابتسامته مرتسمة على شفتيه وفي عينيه ، فثنيت طرفي إلى الباكيات النائحات ، ثم عدت أنظر إلى أبي فراعني أن الابتسامة ثابتة ، كأنها متحجرة ، وأن العين لا بريق فيها ولا ضوء ، وأنها كالزجاجة ، وأن المعنى الذي لمحته لما انحنيت عليه ليقبلني قد خبا وانطفأ فبهت ولكن منظراً جديداً شغلني وصرفني عما وقع في نفسي من هذا الموت العجيب فقد تشددت جدتي وتحاملت على نفسها ،

وركعت إلى جانب ابنها وأدنت أصابعها برفق من عينيه فأطبقت عليهما الجفون ولثمت جبينه ونهضت تشهق وتكاد تختنق :

ولم يبق لى مقام بين هؤلاء الباكيات ، فانحدرت إلى فناء البيت حيث الرجال وكانوا يبكون ولكن في صمت ، ففى الوسع احتمالهم ، وضمنى أخى الأكبر وأجلسنى إلى جانبه ويده على كتفى والدموع تنهمر من عينيه ، وأنا كالصنم وأذكر أنى خجلت ، وحاولت أن أبكى ودعكت عينى بأصابعى ولكن العبرة لم تسعفنى ولم تنجدني وكنت لا أزال غير فاهم هذا الموت الذى أثار هذه الضجة الشديدة فى بيتنا — فوق وتحت — وترك النساء يعطن والرجال يبكين مثل النساء .

ولا أطيل . أقيم المأتم واقتصر فيه على يوم واحد ، وكان مأتما ككل المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه ولكن أخى بعد انقضاء الأيام الثلاثة صعد إلى حيث كانت أمى جالسة ، وأنبأها أن المأتم كلف خمسمائة جنيه فدهشت ولم تصدق وقالت أن هذه ثروه ففى أى شىء أنفقها بل بددها فى يوم واحد ..

فنادانى وكنت قريباً منهما أسمع وأرى ودفع إلى ورقة فيها أرقام وقال « هذا ابنك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة الأرقام ماذا تبلغ : . فجمعت الأرقام فإذا هى كما قال خمسمائة جنيه لا تنقص مليما واحداً .

ولم يتغير شىء من حالنا فى الشهرين التاليين سوى اختفاء أبى فقد كان المال الذى تركه كثيراً ولكن أخى بعد ذلك طلق زوجتيه وسرحهما وتزوج جارة لنا كانت عينه عليها ولا شك واتخذ لها بيتاً مستقلا فاحتجنا أن ننتقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير

الذى كنا فيه فبدأت متاعبنا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخى وبخل علينا بالمال وصار يقتّر علينا ويغدق على زوجته الجديدة حتى بدد كل ماترك أبى فى نحو ثمانية شهور .

وكان لجدي أرض وكانت أمى هى الوصية علينا فزور أخى توكيلا منها له وباع الأرض وبعثر ثمنها فيما كان يلهو به ونحن لانعلم فلما علمت أمى لم تصنع شيئاً وقالت أنها لانستفيد شيئاً من أن تنزل به ما يستحق .

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام واللبن والسكر والسمن فلو جاءنا ضيف لكانت فضيحة وكنت واقفاً على عتبة الباب أنظر إلى صبيان الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكربهم شىء ولا يفكرون فى بن أو سكر ينقصهم ، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبى فى الأزهر مقبل على ففزعت وهممت بأن أتوارى عنه عسى أن لايرانى فيمضى فى سبيله ولكنه لمحنى فنادانى ، وقبلنى وقال « ستك الحاجة كيف حالها » قلت « بخير ولك الشكر » قال إصعد إليها وقبل لى يدها وقل لها إنى أريد أن أقابلها » .

ولم يكن فى هذا غرابة ، فقد كان أيام الدراسة ملازما لجدى ، وكان ربما أقام فى بيتنا — مع أبى — الأسبوع والأسبوعين . وكانت جدتى تعده كابنها ، ولكنى أشفقت من زيارته ، فما فى البيت شىء يقدم لضيف كريم مثله ، فماذا نقول له . وبأى شىء نعتذر .

ولم أر لى حيلة فأنبأت أمى وجدتى ، ثم انحدرت إليه وصعدت به فجلس يحدث جدتى وأنا واقف وظهرى إلى الحائط ، وعقلى شارد وإذا بى أسمعه يقول أنه كان قد خطف من أبى مبلغاً آخر ، فثالثاً فرابعاً ليشترى بذلك أرضاً لنا ، ولكن الأجل وافى أبى . فبقى المبلغ معه ،

ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن ينزل به قضاء الله فيضيع مالنا ، فهو يريد أن يبرىء ذمته ويرده إلينا .

وقد كانت هذه بداية الفرج ، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا المبلغ وتيسر الانفاق على تعليمنا ، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم ، وإنصافا له ، واعترافاً بفضله ، أقول أنه المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء فما وسع أحدا منا فى حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذى لن ننساه ولا نجحده :

— ١٠ —

انتقلنا من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، واستغنينا عن « عم محمد » وامرأته « حليمة » .. أو استغنيا هما عنا ، سيان ، فما كانا خادمين ، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم ، وأحكمنا تدبير أمورنا فى حدود المورد الذى أسعفنا به حسن الحظ ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم ، وألفنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا ننعم به فى حياة أبى ، وكل شىء فى الدنيا عادة ، حتى النسك والعبادة ، كما يقول النواسى ، من قصيدة فى ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع علمتنى النسك

وعودتنيه ، والخير عادة

ومضت الأيام ، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق والاضطراب ، وكانت نفقات التعليم ، على ضآلتها ، فقد كانت ستة جنيهات فى العام أثقل ما نضطر إلى الاحتياط له وتدبيره وفى وسع القارىء أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهات فى العام . فجاءنا يوماً قريب لنا ، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفينى من نفقات التعليم ، فاستحسنا ذلك وقلنا عسى ولعل ، وشرعنا نعين الوجوه التى ينبغى أن نحول إليها ما كان يأخذه التعليم . وكتب قريبى الطلب وأرانيه فقرأته على أمى فسرتها عبارته وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة ، قالت حسبنا التعليم بالمجان مذله :

وغاب قريبنا أياماً ثم جاءنا بنبأ قال « يا ستى » .

قالت أمى « نعم . خير إن شاء الله » .

قال « الغاية تبرر الواسطة »

قالت « يعنى » .

قال « إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين »

فصاحت به « إيه .. هل تريد أن تقول أن فلاناً — تعنى ناظر المدرسة — يطلب رشوة .. »

فقالت أمى معترضة « إذا كنا سنرشو الناس ، ونحن فقراء ، فأولى أن نؤدى نفقات المدرسة ونستريح ونعفى ضمائرنا من هذا الإثم »

قال « ولكن الإعفاء سيظل طول مدة التعليم »

قالت « ولو »

فانصرف قريبنا ساخطاً على هذا العناد متعجباً لهذا التحرج الذى لا موجب له فى رأيه ، ولكنه لم يقنط ، فأعاد الكرة مرة أخرى ، حتى كرهت إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجاجته ، فأنقدته أربعة جنيهات زعم أنه سيفرقها على رجلين .

ومر شهر ، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل قريبنا عن الطلب ماذا صنع الله به ، وهو يقول أنه يتعقبه فى كل مرحلة من مراحله ، ثم فأجنا يوماً بالبشرى ، ففرحت جدتى واغتمت أمى ، واضطربت أنا فلم أعد أدرى أينبغى لى أن أفرح كجدتى أم أحزن كأمى .

وفتحت المدارس ، فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول ، وهو جنيهان وجاءنا قريبنا يقول أنه أخطأ ، وأن الوزارة انما قبلت أن أتعلم « بنصف مصروفات » فقالت أمى بعد انصرافه « ضيعنا أربعة جنيهات وارتكبنا اثما لنقتصد ثلاثة جنيهات » وناولتنى جنيها — قيمة نصف القسط الأول — وقالت : اذهب به إلى المدرسة والأمر لله » .

فذهبت إلى المدرسة وفى جيبى الجنيه — ولكن الله ألهمنى ألا أذهب إلى كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألنى وهو ينظر إليه وإلى « ما هذا يابنى » .

قلت « جنيه » .

قال « ظاهر ، ولكن لماذا تعطينيه » .

قلت « إن فلانا قريبنا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات فهذا هو القسط الأول » .

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان ، وكانت بينه وبين أبى صداقة فرأيت الدمع يترقرق فى عينيه وهو يقول .

— « أنا آسف يابنى ، لقد رفضت الوزارة الطلب ، ووالله ماقصرت فى السعى لك ولكن هذا ماكان » .

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبى ، ورجعت به وبالخبر ، آخر النهار إلى أمى .

ودفعنا القسط كاملا .

وسألت أمى قريبنا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ الجنيهات الأربعة لنفسه ، ووعد أن يردها عند الميسرة ، وقد مات وهى فى ذمته .

وقالت لى أمى يوما « لست آسفة إلا على خديعتنا ، وما أثمرته من زيادة الضيق الذى كنا فيه ، أما التعليم فإنى أحمد الله الذى مكننى من أداء نفقاته فى مراحله كلها ، فما كان يسرنى أن تشعر أنك دون أندادك ، وإنك رقيق الحال ، وهم فى سعة ، وكنت أخشى أثر هذا فى نفسك فالحمد لله الذى حماك هذا الشعور » .

وأخذت الشهادة الإبتدائية فقالت أمي « تذهب إلى المدرسة الخديوية وتقدم إليها طلب التحاق بها » ولكن أخي وقريبي الذى أسلفت ذكره جاء ليقنعا أمي بأن تقبل توظيفي فاستغربت وقالت : « ولكنه طفل » .

قال قريبي « ان نفقات التعليم الثانوى كبيرة فن أين تجيئين بها » .

وعزز أخي رأيه . وألح الإثنان عليها إلحاحا شديداً وهي تأبى وتقول أنها لا ترضى بذلك ، وأن ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان التوظيف وكسب الرزق لايزال بعيداً فاغلظ أخي لها فى الكلام وعنف معها قريبي فطردتهما وأمضت مشيئتها وأدخلتني المدرسة . وقد بقيا زمنا غير قصير لايجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما ، وتوصيني ألا أقطعهما ، وتقول انه خلاف أدى إلى جفوة بينها وبينهما ، وقد فعلت ماتريد وقواها الله عليه فلا مسوغ لبقاء النبوة ولا موجب لها على كل حال فيما بيني أنا وبينهما ، وهي لا تضمر لهما بغضا ، ولكنها تخاف لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لى أن يبقيا بعيدين حتى أفرغ من التعليم .

واعترضت الحمى طريقي فى السنة الأخيرة من التعليم الثانوى وكادت تضيعني بل تقتلني . وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجي ، ولكن العلاج لم يكن يبدو له أثر فقضيت الصيف كله أوجله راقداً لا أكاد أعي شيئاً ، من شدة الحمى .

وفى إحدى الليالى ثقلت على وطأة المرض جداً ، حتى جزعت أمي على ما أخبرتني بعد ذلك ، وكادت توقن أنى هامة اليوم أو الغد ، لولا أن الأم لا تفقد أملها ، وكنا فى بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون ساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التى أرقد فيها تطل على فناء البيت وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها الذاهبة فى الهواء إلى النوافذ ، وكنا

نضع قلل الماء على أحد هذه الشبابيك لتبرد ، فحدث أن مدت أمى يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، ، فقلت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أمى واضطربت جداً ، وكبر ظنها أن هذا نذير بموتى ، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء فى فحمه الليل لترى أسلمت القلة أم تحطمت .

وكانت لا تشك فى أنها تكسرت فما يعقل أن تقع من أعلى طبقة فى البيت وأن تنجو من التهشم ، ولكنها نزلت مع ذلك ، لأن القلة لم تكن عندها فى تلك اللحظة إلا رمزاً ، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بنجاتى .

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة ، أولا أدرى كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذى كان ينبغى أن يكون محققاً .

ولقد حدثتنى أمى بعد ذلك بزمان طويل وهى تروى لى هذه القصة ، أنها بكت ، وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض غير عابئة بالبلل والرطوبة والوحل ، وفى يدها القلة والدموع تهمو من عينيها دموع الأمل والاستبشار .

وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت منى وأنا نائم ، ولمست وجهى بكفها ، مترفقه محاذرة ، مخافة أن توقظنى ، فاذا أنا أتصبب عرقاً ، وإذا بثيابى كلها — كما قالت — عصرة .

وأصبحت وقد ذهبت عنى وقدة الحمى وأخذت أتماثل : :

— ١١ —

ذكريات مدرسية

سأقتصر فى هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً .

وسأكتفى بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التى تغنى عن التفاصيل ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماض بحاضر . فمثلا يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الإبتدائى إذا قلت أن تلميذاً كان معنا فى المدرسة نال الشهادة الإبتدائية فعين فى السنة التالية مدرساً لنا فى السنة الرابعة التى تعد لنيل الشهادة الإبتدائية : وأبلغ من هذا فى الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهى عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الانجليزية . وارسم خطا آخر تتم به الصورة فأقول ما قلت فى فصل آخر إن ناظرنا كان يقول عن نفسه أنه جاهل جاهل ولكنه إدارى .

والآن انتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية :

كان التعليم الثانوى انتقالا بأدق المعانى فقد صار كل ما فى المدرسة انجليزياً — الناظر والمدرسون والتعليم — ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح فى الامتحانات ، وأكبر ظنى أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركوننا

ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع غيرى وأقتصر على نفسى فإنى أعرف بها ، فأقول إنى ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يختلفون فمنهم الفظ ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان يذكرنى درسه بالكتاب الذى حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملى درس الجغرافيا ، فاذا كان الدرس التالى طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعه واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع فى كل ركن واحد من الحافظين ليمتحن زملاءه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس فى الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتى كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من احدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له . تهج كلمة بليد مثلا أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها فى الوقت الحاضر ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لاأدرى لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلا طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل نراه أمراً طبيعياً جداً .

واعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما أغرس فى نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فانى أرانى إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعنى إلا اكبارهم حين التقى بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزه

أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا ، ولكنه كان لا يكتب فى تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لى بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً فى المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاغتنمت هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ » ما هو الاسم العربى لهذا الدخان والتبغ تارة أخرى ؟ . « فقال » : انتظرنى ياسيدى حتّى أنظر فى « الكناشة » وأخرج مما يلى صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدرى كيف كانت مختبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنمـــــا حثحثوا حصا قوادمه

أو أم خشف بذى شت وطباق

ومضى عنى . وفكرت أنا فى كلمة الطباق التى جاءنى بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزى أو الفرنسى « توباك أو توباكو » .

ومن حوادث الشيخ حمزة معى أنى كنت أؤدى الامتحان الشفوى فى الشهادة الثانوية وكان هو رئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دورى اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألنى ماذا أحفظ . وكنت فى صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي ﷺ فعلقت بذهنى وألهمنى الله أن أقول إنى أحفظ خطبة للنبى . ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قلى يا شاطر الله يفتح عليك » وسترنى الله فلم أخطىء ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفانى من النحو والصرف والإعراب .

ولكنه فى مرة أخرى كاد يضيع على سنة . وكنت طالبا فى مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان فى اللغة العربية برياسته فقال أحد أخوانى بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار ، ولم تكن ندرس نحوا ولا صرفا فى المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل وجاء دورى فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى « أعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها » الخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعته ، فسألنى عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التى يكون عليها الفعل « واعتدى » مثل « اعتديا » للماضى المثنى « واعتديا » للأمر ، فسألنى لماذا كان الماضى بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت أنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : « ولكن لهذا سبباً » ، قلت « إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفى ولا داعى للبحث عن سبب مختلق » . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لى وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأيى وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش — وكان عضوا فى اللجنة — تدارك الأمر ، فقد نظر فى ساعته ثم ألتفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « أى نعم » وذهب للصلاة ونسينى فكان فى هذا نجاتى . وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتى به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة فى مدرسة المعلمين . ويكفى أن أقول أنه كانت لنا فى الأسبوع ثمانى ساعات لا نتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة.. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعنا جداً .

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين ، خمس منها فى الوزارة وخمس فى المدارس الحرة ، وفى هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذا أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ فى محاولة المعاكسة ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية فى الشقاوة ، وكانت طريقتى أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه فلا أشغل به نفسى والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه فى ذلك فلا أعد هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوما وأنا مدرس فى المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فألفيت على مكتبى كل أدوات الرياضة مرصوصة على نحو لا شك أنه متعمد وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكتمهم أنى أعد نفسى جاهلا بها حمارا فى علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثونى عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها فى مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوما آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جدا فضاعف الحر شعورى بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها

هى المادة التى كنا ونحن تلاميذ نضعها فى الدواة مع الحبر فتكون لها
هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسى أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد
وإذا كانت الرائحة القبيحة تغثى نفسى فانها تغثى نفوسهم معى أيضا .
فحالهم ليس خيراً من حالى ، والإحساس المتعب الذى أعانيه ليس قاصرا
على ولا أنا منفرد به ، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معى وقد
أرادوا أن يفردونى بهذه المحنة : والفوز فى هذه الحالة خليق أن يكون
لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ
واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إلى مثلها
بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله فى سرى أن يقوينى
على الاحتمال ، ومضيت فى الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسى عما أعانى من
كرب هذه الرائحة الملعونة . وكنت أرى فى وجوههم أمارات الجهد الذى
يكابدونه من التجلد مثلى فأسر واغتبط وازداد نشاطاً فى الدرس وأغضاء
عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا فى الكلام فقد كنت عارفاً أنهم إنما
يريدون أن يستأذنوا فى فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها .

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق ، ورأيت
أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن
يتمردوا إذا أصررت على عنادى المكتوم ، واغتنمت فرصة اصبع مرفوعة
وسألت صاحبها عما يريد ، فقال أنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد ،
قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها : وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس
ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال مالا يطاق .
وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورائى ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا
بى ، وقال لى واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصودا به

غيرى ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكنى تجاهلت وسألتهم عمـا يعنون . قالوا . الرائحة الكريهة التى كانت فى الفصل . قلت « رائحة . أى رائحة . . إننى مزكوم ولهذا لم أشم شيئا فلا محل لاعتذاركم » ومضيت عنهم ، وكان هذا درسا نافعاً لهم ولو أنى عاقبت أحدا لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينغصوا على ، وأن ينجح معى عبثهم الطبيعى فى مثل سنهم .

وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذه : إننى ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولاشىء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظريتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له يبغى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوي مداركه وينمى استعداده ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط النظام ، وقد كان . قضينا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون .

ولم أكتف بهذا بل ألغيت « الجرس » الذى يدق إيذانا بابتداء الدرس أو انتهائه لأنى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور

والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم فى الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التى تستعمل فى المدارس والتى تحتاج إلى موظفين كثيرين لاداعى لهم .

وقد كنت أحب أن أظل فى هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت فى صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة .

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

- ١٢ -

كان عزائى فى تلك الأيام قول القائلة :

« راح يبغى نجـــوة من هـــلاك فهلك
والمنـــايا رصـــد للفتى حيث ســـلك
كـــل شىء قاتل حين تلقى أجـــلك »

أى والله ! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور ، فقلت أعفى أهلى من المتاعب التى تجر إليها الثورات واضطراب حبل الأمور ، فحملتهم إلى بيت جدى — لأمى — « على حدود الأبد » ، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا ، ومضت شهور والثورة لا تقوم ، حتى خالجنى الشك فى صحة رأيى ، وكادت ثقتى بقومى تذهب ، وكنت فى تلك الأيام أعانى أشد البرح ، فقد كان عملى فى قلب العاصمة ، وبيتى فى الصحراء ، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلو مترات أقطع نصفها وزيادة على قدمى غاديا رائحا كل يوم ، ومعى ما يكفى لغدائى ، فإنى أكره طعام السوق ، وكتاب أقرأ فيه فى فترات الراحة من العمل ، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح ، فقد بطل العمل . وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب مواكب وكانوا يعتقلون بالمئات ، ويحشرون فى كل مكان يخطر على البال ، حتى فى مسجد محمدعلى بالقلعة ، وكان الناجون من تلاميذى يرتدلون إلى فى المدرسة التى كنت ناظرها يومئذ ، ويقصون على ما جرى ، ويذكرون لى أسماء المعتقلين من زملائهم ، ومكان اعتقالهم ، وكانت العلاقة بينى وبين تلاميذى علاقة أخ كبير بإخوة صغار ، فكانوا لهذا لا يكتموننى شيئاً ، ولا يحجمون

عن مصارحتي بما يدور في نفوسهم ، وما تضطرب به صدورهم ، ولا يترددون في مشاورتي حتى في أخص الأمور الشخصية ، فكنا نعقد كل يوم اجتماعاً لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل ، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير ، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكون بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش .

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً ، ففي الوسع الاستغناء عن الأغطية واحتمال النوم على الأرض ، فيبقى الطعام والثياب ، ويطيب لي أن أروى أن بعض التلاميذ كان يرتدى عدة أكسية ويدس في جيوبه ما تتسع له من الآكال الناشفة ، ويقصد إلى المعتقل الذى يعلم أن فيه اخوانا له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه ، أى في المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم — وقلما كانوا يصرفونه — فيخلع على زملائه أكثر ماكوم على بدنه ويطعمهم مما حمل ، وكان هذا يزيد المعضل تعقيداً ، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه ، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد ؛ فكنا نفعل كل ما يخطر على البال بلا حساب للعواقب ، ما دام له غناء إلى حين ، وسهل الأمر قليلا أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم في كل يوم .

وليس من همى أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها ، وإنما أريد أن أقول أنها زادت عنائى وضاعفت ماكنت أكابده من مشقات ، وكل شيء عادة ، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرغد ، وسكنا إلى الأحوال الجديدة الحافلة بالمنغصات والمتعبات ، وانقطع

التبرم والضجر ووطنا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن تجيء به الأيام .

وكان كل طريق إلى بيتى ، يعوج إلى ا لجبانة المقابر ، فكنت أسلكها كل يوم ، وأرى الأجداث المبعثرة فى كل صباح ومساء ، وتحت ضوء القمر ، وفى وقدة الظهر ، وفى الظلمة الحالكة ، وفى البكرة المطلولة فنفعنى هذا وبلد شعورى بالموت ، وشفا استهوالى له ونزعى منه ، وجعله فيما أرى وأحس ، أمراً عاديا لا غرابة فيه ولا بالة له ، حتى لقد صار يتفق لى بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشى ، فأقعد على صوى قبر من القبور الكثيرة فى طريقى ، وأشعل سيجارة ، وأروح أدخن ، وأدندن ، بصوت خفيض ، أو أرسل الصوت بالغناء ، ولا أشعر بحرج أو استنكار .

وكان بدء التحول فى حياتى أن زوجتى ماتت ، وإنى لأومن أن لكل أجل كتابا ، ولكنى إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعفي نفسى من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها ، وهو سكران ، وقد مات هو أيضاً بعد سنوات : فإلى حيث ألقت ، وما أعرفني شمت بميت سواه ، ولم يعتمد قتلها ، ولكنا دعوناه — وقد جاءها المخاض — فشممت رائحة الخمر من فمه ، وفحصها ثم قال لى إن الحالة طبيعية ، ولم يكن ثم موجب لدعوتى ، وسيحصل الوضع في أوانه ، ولكنى جئت فلا داعى للانتظار (كذلك قال والله) وكنت أعاونه . فطهر الآلات وشرع فى العمل ، وجر الجنين فاذا الآلة التى طوق بها رأسه قد حفرت فيه إخدوداً يسع الخنصر ، وشغل نفسه دقائق بالجنين ، والتنفس الصناعى على غير جدوى ، فألحت عليه أن يتركه ويعنى بالأم ، فما ثم شك فى أن الجنين مات ، فرجع إلى الأم ليخرج « الخلاص » فكان والله

يشده كما رأيت الفرق الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك من قوة ، ثم رأى أن هذا لم يجد ، فدس يده وأخرج الخلاص مقطعاً إربا ، ثم لفها ، وقال ترقد ولا تسقوها ماء ، وأخذنى معه ، فقال لى إن الحالة خطرة ، وإنه آسف . فلم أطق هذا اللف وسألته : « متى تتوقع أن تكون الوفاة . . ؟ إنى أسألك عن هذا لأنى أوثر أن أكون على بصيرة ، ولا تخش جزعى ، فان واجباتى الآن لا تدع لى وقتا للجزع ، فلم يجبنى جوابا صريحا ، وقال : سترى ما يكون صباح الغد .

وعدت إلى زوجتى فأدركت مما رأيت أن النزف يلح عليها ، وأنها تموت شيئاً فشيئاً ، فبقيت إلى جانبها أقوى نفسها — وأنا يائس — وأشد من عزيمتها ، وأبتسم لها وقلبي يتفطر ، وبالغت في التظاهر بالاطمئنان حتى لقد خلعت ثيابى وارتديت ملابس النوم ، ولكنها كانت تحس من نفسها ما لا أحس ، فأوصتنى بولدنا خيرا ، وودعتنى ، وجادت بالنفس الأخير ويدى على يدها .

وكاد عقلى يطير ، وهممت بأن أشكو الطبيب ، ولكن ما الفائدة ؟ ! وكيف أثبت تقصيره أو خطأه أو سكره ؟ ! وشق على الأمر حتي لقد تغير رأيي فى الناس والحياة الدنيا ، والخير والشر ، وحدثت أكثر من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون ، ولكن هذا لم يجدنى ، ولم يمنع أن طبيباً ثملا قتل امرأتى ، وأين العزاء فى أنه غير عامد ، وأن هذا قضاء وقدر على كل حال .

ولم ينجنى من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي والاشتغال بتصحيح الأخطاء فى ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفعنى فيها شاعر .

تغيرت جداً بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر غير الذى عرفته فى ثلاثين سنة على أنى مع ذلك ظللت قادراً على كبح النفس فلم يفلت من يدى العنان أو لم أدعه يفلت .

وانقضت الأربعون — وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوما موروثة من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الجثة أربعين يوما لتحنيطها — فلم أعد أطيق بيت جدى بعد أن خرجت زوجتى من دنياى فيه ، فتركت فيه ما كانت زوجتى قد جاءتنى به فى جهازها واستأجرت بيتاً آخر حملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومى لأصححه على قدر الطاقة .

واتفق فى ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحاكمة كثيرين فيما زعموه مؤامرة كبرى ، وكان المتهمون أكثر من عشرين بينهم سكرتير اللجنة المركزية للوفد المصرى الذى كان يفاوض لجنة ملنر بلندن ، وكنت أعمل يومئذ فى « الأخبار » مع المرحوم أمين الرافعى بك فسألنى من نبعث إلى المحكمة لحضور جلساتها . . قلت سأحضرها أنا . قال إنه عمل طويل شاق ، فدعه لغيرك ، قلت كلا ، وإن بى لحاجة إلى عمل مضن يشغلنى عن نفسى ، ويصرفنى عن التفكير فى أمرى . وما أصبت به فى حياتى . فوافق ودعا لى بخير ، ولم تدع لى المحكمة العسكرية وقتا لسواها ؛ وكانت تعقد فى اليوم جلستين ، وظللت كذلك من يوليو إلى سبتمبر ، وكنت فى مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتمى على الفراش وأنام كالميت ، فنفعنى هذا أيضاً وإن كان أسقمنى .

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالى ستة آلاف من الجنيهات وكانت الاكتتابات تودع بنك مصر أولا فأول .

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتتاب يحفظ فى بيتى أنا ، وكان البيت طبقة واحدة ، وله فناءان ، واحد قدامه وآخر خلفه ، وفيه الفرن وما إليه ، وكان الجدار الخلفى واطئاً ، فأيقظنى ذات ليلة صوت جسم وقع فى الفناء الخلفى فتوهمت فى أول الأمر أن حجراً مزعزعاً أسقطه قط أو نحوه ، ولكني سمعت بعد ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب ، فنهضت ، ومضيت إلى الباب الموصد ، وفتحت شباكه ونظرت فإذا واحد من أهل الحى ولم يخطر لى أنه جاء ليسرق ، فما فى البيت ما يستحق أن يطمع فيه أشد اللصوص قناعة ، وظننته جاء يطلب شيئا ، فحييته وإن كان قد أسخطنى عليه أن يجىء فى هذا الوقت المتأخر ، وفتحت له الباب وقلت له « تفضل » وحملت ما بدا لى من تردده واضطرابه على محمل الخجل فألححت عليه فدخل ، فمضيت به إلى المكتبة ، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له قهوة ، فاستغرب سلوكى معه ، وأعجبه على ما يظهر ، فأقر لى بالحقيقة وسألنى الصفح ، فضحكت ، وقلت له والله إنى لجدير بأن أخجل منك ، فإن البيت فارغ ، ودرت به على الغرف ليرى بعينيه مبلغ فراغها فزاد خجله ، وطال اعتذاره وعظم أسفه ، فخطر لى أن من نقص المروءة أن أرده خائباً ، صفر اليدين ، ولم أجد غير الكتب ، فتناولت طائفة منها ، وقلت له خذ هذه وبعها ، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلى ، فقد مللت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها انى أعطيته هذه الكتب ، حتى لا يزعجه الشرطة .

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقى فقال لى يوماً ان هذا البيت غير مأمون لأنه « منطة » وأن الأولى أن أتخذ حارساً ، ولولا أنه مشغول بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة . ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ ، يؤدى هذا الواجب .

وبعد بضعة أيام جاءنى بفقيه أعمى وقال هذا حارسك ، فلم أر أن أرده ، فكان يبيت كل ليلة عندى على الشرفة ، وإلى جانبه نبوته . وكان خفيف النوم فكل شىء يوقظه ، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح « من القادم . . . » فأستيقظ أنا أيضاً ! . . فلم أجد لى فى هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة ، وقلت له اقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم .

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة .

- ١٣ -

منذ مئات من السنين ، أو الحقب فما أبعد هذا الماضى فيما أحس ، وما أقربه أيضاً — قرأت قصة هيبسيا لشالز كنجزلى ، وكان صديقى العقاد هو الذى دفع بها إلى وأوصانى ، وأنا أقرأها ، أن أحضر إلى ذهنى قصة تاييس لأناتول فرانس ففعلت ، ورأيت كما رأى ، أن من الممكن أن يقول المرء أن القصة الانجليزية هى التى أوحت إلى الأديب الفرنسى بموضوع تاييس ، وأنا أفضل القصة الانجليزية ، وإن كان أناتول فرانس أبرع فنا وأسحر أسلوبا ، على أن هذا موضوع آخر ، وكل ما أريد أن أقوله أن في هيبسيا ، على ما أذكر ، رجلا عجيب الأطوار غريب الفلسفة ، يكون في زورق أو سفينة — فما أدرى الآن — فيروح يتفلسف في ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس ، حتى ينتهى إلى إمكان القول بأنه هو غير موجود على الرغم من إحساسه بنفسه ، وشعوره بوجوده .

وقد راقنى هذا الرجل يومئذ وأعجبتنى فلسفته ، وإن كانت تؤول إلى لا شىء ، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقه يدور فى نفسى ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه ، أو ماذا هو فى الرواية ، وكنت فى صباى — أى نعم فى صباى — أحببت فتاة كانت جارة لى ، وكانت فى مثل سنى ومن أجلها كففت عن اللعب فى الحارة مع الغلمان ومن أجلها كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وأتملى بالنظر إلى حسن وجهها ، فقد كان أهلى يزجروننى عن لقائها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبيانى ، وهؤلاء وأولئك جميعاً يخشون العاقبة ولا يطمئنون إلى النهاية . وكنت لا أكتم حبى لها ، بل أشعر به وأنا جذل مسرور وأحدث به غلمان الحارة ، فيستغربون ، وخادمنا فيدعو لى بطول العمر والسعادة ، والشيوخ الوقورين

من أصدقاء أخي الأكبر فيضحكون ، ويتسلون ، ويربتون على كتفي ويقولون « عال عال ما شاء الله ما شاء الله » .

وكنت أقول لأمي حين تنهرني عن هذا الذي كان في رأسها عبثاً « ماذا يضير أحداً أن أحبها ؟ »

فتقول « اختشى يا ولد عيب ! »

فأتعجب وأسألها « عيب ؟ أى عيب فى حبي لها ؟ إنى لا أصنع شيئاً سوى أنى أحبها . »

فتقول « هذا هو العيب »

فأسألها « ألست تحبيننى ؟ »

فتبتسم وتقول « يا بني كيف تسأل ؟ »

فأقول « لست أسأل ، فإنى أعرف أنك تحبيننى ، وأنا أحبك وليس حبك لى عيباً ، ولا حبي لك ، فلماذا يكون ذلك عيباً ؟ »

فتقول « هذا شيء آخر ، أنت إبنى ، وأنا أمك ، ولكن هذه . . . هذه ليست منا » .

فاسألها « إن أبي لم يكن منك . ولكن تحبينه ، ومازلت تلبسين السواد حداداً عليه منذ سنوات »

فتقول « ولكنك صغير لا تفهم »

فأقول « صحيح أنى صغير ، وأنى لا أفهم ، ولكنى أحس يا أمى . . ألا يكفى أن أحس ؟ وصدقينى ولا تغضبى أو تستائى حين أقول أنه أشهى إلى أن أكون جالساً إليها الآن وإن قلبى يرف صبوة إليها »

فتطرق شيئاً ثم ترفع رأسها وتضع أيدها على كتفي وتقول « وبعد ؟ ما هي النتيجة ؟ ما هو المآل ؟ »

فأقول « لست أعرف ماذا تعنين ؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح بذلك .

فتسأل « ولكن النتيجه ؟ ماذا بعد هذا الحب ؟ ما آخرته ؟ »

فأقول « لا شيء . . أحبها ، وهذا هو الأول والآخر . . ثم لماذا يكون له آخر ؟ »

فتقول « انك طفل .. وهذا غير معقول »

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام . كما ينمو شعر رأسي . وقد تحولنا إلى بيت آخر وبعدت الشقة جداً ولم يكن هذا يمنعني أن أقطع المدينة من أولها إلى آخرها سيراً على القدمين كل يوم لأزورها . وثابرت على حبها أعواماً طوالا ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني ، فغاب الخير والأنس ، وغاض السرور من نفسي ، وأظلم القلب .

كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد مضى ثلث قرن وزيادة على هذا الحب الأول ، وزحفت المدينة ، وهدمت الحي الذى كان فيه بيتها . هدمته كله ، ورفعت عمائر جديدة ، وشقت طرقا ، ووسعت ميادين ، وغرست أشجاراً ، ومدت قضباناً ، وأجرت تراما . وإذ بي في يوم من الأيام أزور هذا الحي وأجوبه شبراً شبراً ، وأتمثل ماضيه كيف كان ، حتى اهتدى إلى الرقعة التي كان بيتها قائماً عليها فأرجع مغتبطاً قرير العين ، وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب .

ولم تبهت ولن تبهت صورة الفتاة ، وإني لأراها الآن ، كما كنت أراها في ذلك العصر الخالي ، واقفة إلى جانبي وأمامنا على النافذة طبق فيه « لب » تقشره لي ، وتعطينه ، لأني لا أحسن قشره ، أو جالسة على

حشية تسرح شعرها الدجوجى ، وترجله وتضفره ، فأميل على رأسها ، وأدنى أنفى من شعرها الرجل ، وأشمه . وإنى ليخيل إلى أنى أجد طيبه الآن أنفى ! وما أقول « يخيل إلى » إلا اتقاء لإنكار القارئ فإن شعورى بذلك أصدق ما يمكن أن يكون شعور إنسان بشىء . وما زلت أراها ، تجرى فى الحارة وراء دجاجة لها شاردة ، وأنا أدعوها أن تتريث وتقف هناك ، وتخطو مترفقة ، على حين أقف أنا فى ناحية أخرى لنحصر الدجاجة بيننا ، ونزحف ونضيق على الدجاجة المارقة ، وهى تصيح وتضرب بجناحيها ، وتحاول الإفلات ، فتنحنى الفتاة عليها بنيته لتمسكها ، فتأخذ عينى ثدييها الناهدين الراسخين وقد ثقلا بالثوب وأحس هزتهما تحته ؛ فيدور رأسى وأذهل عن الدجاجة ولا أعود أدرى أفلتت أم وقعت ، فتصيح بى وقد اعتدلت « مالك وقفت وسكت ؟ ألا تساعدنى ؟ » فأفيق وكأنى عدت من عالم آخر ، ولا نزال بالدجاجة حتى نمسكها » .

وصورتها وهى على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة وتثبتها بالمشابك ، وقد كشفت عن ساعديها وطوت الكمين فوق المرفق ، فبدت البشرة السمراء مضطرمة من أثر الغسل ، وجهد الدعك وفعل الصابون .

وصورتها وهى واقفة بفناء البيت تودعنى ، وباب السكة موارب ، وقد ضممتها إلى صدرى وطوقتها بذراعى ، وعكفت على فمها بالقبل الحرار ، وكان وجهها إلى الباب ، وظهرى إليه ، فمر رجل من أصدقاء أخى ، نعرفه ثرثارة تماما ، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقى ، وأحسبها ضجرت ، وأتوهمها فترت ، فأكتئب ، فتصيح « لا لا . هذا الرجل » وتقص على الخبر وتعيد لى بشاشتى وترد إلى روحى الإشراق .

وصورتها وهى راقدة ورأسها على وركى ، ويدى على شعرها أمسحه

وأتخلله بأصابعى ، وألمس خدها الأسيل ، وأداعب شفتها الرقيقة بأصبعى ، فتخافلنى وتعضة .

كلا ، لن تبهت هذه الصور إبدا ، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها السن ، أو يزداد عمرها عندى يوما ، وستظل على الأيام غضة صغيرة .

ولكنى نسيت اسمها ، فكأنى ما عرفته قط ولا سمعت به .

ترى ماذا كان ؟ وكيف كان فى السمع ؟ وفى وسعى أن أسميها شيئاً وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء ، ولكنها عندى أحلى هكذا بلا اسم ، ولا عنوان . وماذا يزيدها أن يكون لها اسم وماذا أصنع به وليس ينقص الصورة شىء ؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف فى قصة هيبسيا .

— ١٤ —

بعد أن كتبت الفصل السابق شق على أنى نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التى أحببتها وأنا صبي ، ولا يزال لحبها — أو لذكراه — نوطة فى الفؤاد ، وعلوق بالنفس ، وقضيت أياما أحاول أن أتذكر . حتى وأنا أعمل أو أتكلم ، أرى خواطرى تمشى إلى هذا الذى تفلت منى وغاب عنى ، وكان يخيـــــل إلى أحياناً أن السجف المسبل ينمحى قليلا ، قليلا ، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف ، وأن نجما يوشك ومنبه الخفاق أن يطالعنى ، فأبتسم ، وأطمع ، وأتشوف ، ولكن ما كاد يرق يعود فيتكاثف ويتراكب ، فأرتد بالخيبة والأسف ، وأتعزى بقولى من يدرى ؟ إن للذاكرة معابثاتها ، وقد يتفق لى يوماً بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته ، أن أكون فى مجلس شراب أو فى السينما ، أو أكون ناهضاً من رقاد ، فيحضر الغائب ويظهر المحجوب أو المتوارى ، ويطفو الراسب ، ومن يدرى أيضاً ؟ لعلى حينئذ أتذكر اسم الفتاة !

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها ؟ هل يسعنى أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذى كنت أعرفها به ؟ كلا ، فما إلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سبيل ، وعجيب أن أنساه .

وأعجب منه أن ما يدور في نفسي من الأسماء لا أجد له فى جوانبى صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هى قد نسيت اسمى ، بل نسيتنى جملة ، فما كنا إلا طفلين نلعب بما لا نفهم ، وما أحسبها غالت بحبها لى وضننت به على العفاء كما غاليت وضننت ، وأكبر الظن أن شئون

الحياة وشجونها وأفراحها وأتراحها أذهلتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة ، وله من سحر . وانه ليخطر لى أحياناً ، وأنا أرى بنى أن هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بنى منها ، ولو رأيت أبناءها — أترى صار لها بنون ؟ — لما وسعنى أن أتصور أنهم بنون دونى ، أو على الأقل أن خاطرى الماثل فى نفسها لم يطبعهم بشىء منى ، ولكن أنى لى الآن أن أعرف — بل أكون واثقاً — أن خاطرى يتمثل ، أو كان يتمثل ، لها ؟ ويشق على أن أتصور أنها تنسى . ولعل حبها لم يكن كفاء حبى ، ولكن أحسبها تنسى كل شىء إلا أني فزعت إليها واختفيت عندها وفى بيتها ، وفى حجرة مظلمة رطبة مهجورة منه ، يومين كاملين .

وكان أخى الأكبر — رحمه الله فإن به حاجة إلى الرحمة — قد أراد أن يبرنى ويسرنى فدعاني إلى مرافقته فى يوم « شم النسيم » فذهب بى ، ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسى الثرثار الذى أشرت إليه فى الفصل السابق — والذى رآنى أعانق فتاتى فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقهقه فسمعت به أمى واغتمت له جداً — إلى روض الفرج ، وكانت هناك سفن راسية .

وقد صفت عليها الكراسى والطرلات على هيئة المقاهى ، فجعل اخى وصاحبه يشربان « بيرة ستوت » وجاءت امرأة سمينة ، ولكنها جميلة فسلمت وجلست ، وادير عليها الراح التى تدار عليهما ، ونظرت المرأة السمينة إلى بعينها المكحولتين وسألت « ألا تشرب ؟ » فتبسمت ولم أرد ، فقال اخى وكان من أظرف الناس إذا شرب — « خذ ... إن هذا لا يضر » فهززت رأسى أن لا ، فمال على وهمس فى أذنى « لا تخف إشرب وأنت آمن » فهززت رأسى مرة أخرى ، فعاد يهمس فى أذنى « اشرب بالله ، وسأقول لخالتى » يعنى أمى ولم تكن خالته ولا أمه « أنى اسقيتك سوبية » وهى شراب يصنع من الأرز فقبلت وأقبلت على الكوب الكبير اكرع منه كما يكرعون ، وكان هذا أول عهدى بالشراب ، فدار رأسى قليلا ،

وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني وراح هذا الشركسي الثرثار يغمز أخي فيسألني هـذا عن فتاتي ، فأقول بحبي فيضحكون ويقهقهون . وتكون المرأة السمينة الجميلة أعلاهم ضحكا وأشدهم قرقعة صوت ، وكانت صورة هذا المجلس ماثلة لخاطري ، لما نظمت بعد سنوات طويلات المدد — قصيدة مطلعها .

حتا شرابهما في ظل حسان ... رياه ريحاننا في مجلس الحان
ريا الحبيب . ولا شيء كنفحته ... وهنا يهيج أطرابي وأشجاني
حتا شرابهما حتى رأيتهما ... لا يصحان : وإن كانا يقولان
هما أثيران علاني على ظمأ ... وبالشراب على سري يغوصان

ولم أكن أعنى هذه السمينه الجميلة ، ولكن صورة مجلس الشراب الأول ألحت علي ، فمضى القلم يرسمها في التي يطربني منها ما تثيره من الذكرى .

ولا أحتاج أن أقول أني سكرت ، وقد دخلت على أمي ، وشمت من فمي رائحة النبيذ ، فغضبت غضباً شديداً ، ودعت جدتي « لأبي » وقالت انظري ما صنع خيري بأخيه ؟ فنادت جدتي أخي ، فأقبل عليها يبتسم لها ، فصاحت به « ياقليل الحيا يامزبلح .. خذ » وخلعت القبقاب ، وأهوت به على أخي وهو يضحك فيلاطفها ويعتذر ويسألها الصفح ، ويحاول أن يطمئنها علي ، وكنت أنا قد تسللت إلى غرفتي ، وارتميت على السرير ؛ ولم أكد أفعل حتى ألقيت ما في جوفي على البساط ، فخجلت .

ولم أعد أطيق أن أنظر إلى وجه أمي أو جدتي ، فصعدت إلى السطح وانحدرت منه — على السلم المعهود — إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء ، وأهبت بها أن تؤويني ، وتخفيني عن العيون — حتى عيون أمها وأختها — فحارت كيف تصنع ، ورأيت أنا باب الحجرة المهجورة فدفعته ودخلت

وقلت هنا أختبىء ، ولم يكن فى الحجرة شىء يصلح للجلوس أو الرقاد ، فسرقت الفتاة كرسيا قعدت عليه حتى تتدبر الأمر ، ثم جاءتنى بحصير ومخدة فارتميت ونمت ساعات ، ولما أفقت كانت قد هيأت لى طعاماً — بيضاً مسلوقاً وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزاً — فأكلت هنيئاً وشربت ماء كثيراً .

فى هذه الحجرة قضيت ليلتين ، وكنت فيها كأنى فى سجن ، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون ، وكانت الفتاة تؤنسنى بوجودها ، وتجيئنى بأخبار البحث عنى ، وقد ضحكنا جداً لما روت لى أنهم أطلقوا منادياً يتصيح فى الشوارع « ياللى شاف ولد تايه عمره اتناشر سنة لابس جلابية بيضة وراسه عريانة اسمه ابراهيم ... الخ الخ »

وكان ضحكنا لأنى لست طفلا حتى يظنوا أنى تهت وضللت الطريق وكان قلبى يعصره الألم كلما تصورت جزع أبى وجدتى ، وبكاءهما ، وقد هممت مراراً أن أبعث إليهما بخبر مطمئن ، ولكن الوقت كان يمضى ولا أفعل ، وكان التردد فى هذا والحيرة شر ما أعانى ، ولكنى كنت راضياً مغتبطاً بقرب الفتاة وحسن رعايتها لى ، وصدق سريرتها فى كتمان سرى ، حتى عن أمها وأختها . ولم أكن أبالى الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفاً ، والظلام جنة ، وألفت عيناى النظر فيه فكان حسبى أن أرى محيا الفتاة .

ولكن الحب ، بالغاً ما بلغ من القوة والعمق ، لا يمنع أن يضيق المرء صدراً بهذا الحب ، وأن تلح الرغبة فى الخروج من مثل هذا المحبس على ما كان فيه من الأنس ، ولم تنكر الفتاة منى ما كان يبدو من تململى وضجرى واشتهائى الخروج إلى النور ، بل تطوعت فكانت رسولى إلى أمى تطلب لى منها الصفح ، فما كان من أمى إلا أن ائتزرت وخفت إلى ، وضمتنى إلى أحلى صدر وأرق قلب كأنما كنت قد غرقت أو خطفت . !

كلا ، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي ؟ فوق الثرى أم تحته يا ترى ؟ قد تكون ماتت ! أو تكون الآن عجوزاً شمطاء ! فهل أنا أحب اليوم أن أراها ، وأن أعرف كيف صارت من بعدى ؟؟ لا !

وإنى لأذكر أنى كنت يوماً أتمشى مع صديقى الأستاذ العقاد ، فرأيت رجلا قصيراً مرسل اللحية أبيضها ، مقوس الظهر ، مغضن الوجه ، فقلت لصديقى « أنظر . . هذا هو المازنى فى السبعين من العمر ! تالله ما أقبح ما نحن صائرون إليه من الضعف والتهدم والدمامة ! لا ياسيدى ، خير من هذا المصير عمر قصير مع الصحة والقدرة .

نعم ، أكره أن أرى الفتاة فى حاضرها ، وأن أفسد على نفسى صورة صباها النضير ، وشبابها الريان ، وهبها ماتت ، فما ماتت عندى ، وإنى ليموت منى كل شيء ، ولكنها هى عندى ومعى حية لا تموت ولا تهرم مابقيت .

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انقباضا عن الناس ، وفتوراً عن لقائهم ، ومخالطتهم ، ونفوراً من الاتصال بهم ، وكنت قبل ذلك أحس الضيعة إذا لم أجد من أجالس وأحادث ، وكان يسرني أن أسمع صوتى — لا شاديا بل متحدثا — وكانت لذة الحديث لاتعادلها عندى لذة ، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الأخوان ذا ولوع به أو طلب له ، من برىء وكانت الوحدة تتلف أعصابي ، وتعصف باتزاني ، وتكلفنى شططا ، ثم ألفيتني — من حيث أشعر ، ولا أشعر ، أضيق الدائرة ، أو أوسع لنفسي المخرج من محيطها ، وأتسلل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أتلفت فلا أجد حولى أحداً ، وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم ، أتردد ، وبى من التهيب والخجل مثل مايحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به .

وقلت لنفسي مرة « ياهذا ، إنك لتمشي فى شارع غاص بالخلق مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وتروح وتجيء مثلهم أومثلهن ساعة أو بعض ساعة ، وتقطع خمسة فراسخ فى الذهاب والإياب فلا يتفق أن تلقى وجها تعرفه . نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير فيه . وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة ، ولا تزال يده ترتفع بالسلام أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك ، إلا أنت فما يمر بك من تعرفه أو يعرفك ، ومع ذلك أنت أشهر من يمشى فى هذا الشارع ، ولعل كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرأوا لك ، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك — ورقات مغلفة أو مجلدة

ولا يعرفونك فى الأحياء من أمثالهم ، ومن يدرى ، لعلهم يستغربون ، بل يستنكرون أن يروك في الطريق ! فكثيراً ما تحصل فى نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب . وقد خابت لى أنا آمال كثيرة فى أدباء عرفتهم قبل أن أراهم ، لأنى وجدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم . والصورة التى يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه ، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك . والنفس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلوينها وانطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام فى أحياء كثيرة وهذه الصورة المتخيلة تكون من جهد النفس ، والنفس لايطيب لها أن يذهب جهدها عبثاً ، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة ، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه ، وباهي فيما بينه وبين نفسه به . وما أكثر ما سمعت من الناس فى أول لقاء « غريب » ! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جسيما له طول وعرض « أو قولهم » لقد كنا نتصور أنك نكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة « أو قولهم » أأنت المازنى أم اختزاله ؟ « ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أبقي في اذهان الناس كما يشاءون ان يتخيلونى ، وان اظل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو — أو لايرضون فقد استوى هذا وذاك عندي — ؟؟؟ »

وقلت لنفسى أيضاً « إنك لم تعش إلى الآن » كما تحب وتؤثر أن تعيش ، ولا سبيل إلى حياة تشتهيها مادامت تخوض العباب مع الخائضين وتضرب فى اللجة مع الضاربين ، لأنه لايسعك إلا أن تنزل فى الأغلب على حكم الجماعة ، ولكل جماعة قواعد حياتها ، والأمر في جد الحياة مثله فى لعبها ولهوها . وكما أن للعب أصوله ونظامه ، كذلك للجد ، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها ؛ وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها ، إذ القيد قيد على كل حال

فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذى هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك » .

وقلت لنفسى أيضاً ، على سبيل التشجيع « واعلم أنك لا تخسر شيئاً تتحسر عليه ، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت فى مخالطتهم ، فسيكون عندك خير عوض عما يفوتك ، ذلك أنك تكون كالذى يشرب عصارة ولا يمص ، فهل من الخسارة تعفى نفسك أن تعب التقشير والمص ، ومنظر النفاية التى لم يبق فيها خير ، وأن تقنع بالعصارة التى هى الخير كله ؟ ؟ »

وصحيح أن بذل الجهد لذة ، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجىء بلا عناء ، ولكنى لن أحرم لذة الجهد ، حين استغنى بالكتب عن الناس . وقد صرت آكل ما يريح وينفع ، لا ما هو أشهى وأمتع ، وأشرب ما يفيدنى لا ما هو أعذب فى فى أو ما أنا إليه أميل وأنى لأرد نفسى عن كثير مما يتحلب عليه الريق ، لأن طاعة النفس فيه يجىء فى أعقابها مالا يطاق من الآلام والأوجاع . وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب ، ولا أعرف لى الآن مطلبا عند الناس ، فقد بعد ما بينى وبينهم جداً ، وإنى لأرانى مع الواحد منهم فأحس أنه فى كوكب آخر وعالم غير عالمى . ليس همى همهم ، ولا أنا منهم ولا هم منى فى قليل أو كثير ، ومنى ذهب الشعور بالمشاركة فماذا يبقى ؟؟ ولست أعنى أنى خير منهم أو أفضل ،ولكنى أعنى أنى أرانى مختلفاً ، والاختلاف ليس مزية ، ولا أفضل فيه ولا رجحان .

وقلت لنفسى أيضاً « لقد ثار بى صديق مرة لأنى سألته ألا تشتهى أن تتمرغ كالحمار على الأرض ؟؟ وحسب أنى أقول إنه حمار ، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ وأعترف أنى أسأت العبارة عما أريد ولكنى إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية ، وما دام لا ضير فيها على أحد فماذا

يمنع منها ؟؟ ولماذا نحيط أنفسنا بأسلاك شائكة لاضرورة لها ولامنفعة منها ؟ .

وهبنى تمرغت على التراب ، وتقلبت على الأرض ، كما يفعل الحمار ، فأين البأس هنا ؟ ؟ إذا كان ثم بأس فهو علىّ لا على أحد غيرى ، وثيابى هى التى ستتسخ ، ووجهى هو الذى سيتعفر ، وإذا كانت نفسى تنازعنى أن أفعل ذلك ، فإنى أنا الذى يؤذيه الإحجام عنه ، وأنا الذى ترتاح أعصابه وتسكن نفسه إذا فعل . ولكن صاحبى غضب ، وإن كنت لم أقصر فى الشرح والبيان ، وفى الاعتذار من سوء العبارة وقبح لاختيار للمثل . ولا يزال يذكرنى بالسوء كلما عرض ذكرى فى مجلسه ، ولاينفك يقول إنى وقح قليل الأدب ، ولا شك أنى كما يقول مادام الأدب هو ما يعرف . وقد يسره ويخفف من سخطه على أن يعرف — إذ أمكن أن يحمل نفسه على قراءة شيء لى — أنى أخرج فى بعض الأحيان ، إلى الصحراء وأتمرغ كالحمار على رمالها ، وأعوى كالكلب وأموء كالقط ، وأصرخ وأصيح فى هذا الفضاء الشاسع ، ثم انهض وانفض عن ثيابى الغبار ، وأمسح وجهى ويدى ، وأعود إنسانا محتشما ذا سمت ووقار ، ولكن بعد أن أكون قد أرضيت نفسى وأشعرتها أنى حر ولى فى هذا الذى لا قيمة له عند الأكثرين ؛ وأن فى وسعى أن أفعل ما أشاء ، وأكون على ما أحب . ولا نكران أن هذا لا يتاح لى إلا وأنا منفرد وحدى ، ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفرداً وحدك وأن تنعم بذلك ، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس .

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا مما عسى أن تفعل وأنت وحدك . ولكن كثيرين يكونون وحدهم ، ولاعين عليهم ، ولا خوف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرءون أن يفعلوا ما تحدثهم به نفوسهم .

وقلت لنفسى أيضاً « لا أدرى لم هذا الموت ؟ وإنى لأشتهى أن أرى حياة من لا يموتون ، وبودى لو يمتد بى الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يغالب هذا الردى العادى . وأحسب أن الموت هو مصدر ما نعده فضائل فى الإنسان ، وقد شرحت هذا فيما كتبته عن المتنبى فى « حصاد الهشيم » فلا أعود إليه ، ولكنى أحسبه أيضاً علة ما ألفنا أن نسميه الرذائل . غير أنه ما الخير والشر ؟ وما الفضيلة والرذيلة ؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط للسلوك ، ووسيلة لتنظيم الجماعة والانتفاع بما فى الطباع . وإنا لفى زمن يعد فيه الخير فى مكان شراً فى مكان غيره ، والفضيلة هنا مرذولة هناك . ولقد أدركت عهداً كان ذكر الحب فيه عيباً ؛ وكان تقبيل الفتى لأمه التى نجلته ، قلة حياء ، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا ، ونطلب لغير الشرعى من الأبناء مثل مالصنوه الشرعى من الحق والكرامة ، ونرى الخطيبين أو الزوجين ، أو الصاحب والصاحبة يتلاثمان على قارعة الطريق وفى المجلس الحافل ، ونحس الرضى والاغتباط من الناظرين ، ونشعر أنهم يدعون لهما ، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون ، فأين العزاء فيه لحى لا يلبث أن يصبح « هالكا وابن هالك ، وذا نسب فى الهالكين عريق » ؟

وطال تفكيرى فى هذا الموت ، وخامرنى خاطره ، فهو لا يفارقنى فى يقظة أو منام ، وإنى لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما تراءى لى من الصور والحوادث فى رقادى ، وما غمضت عينى ليلة إلا

وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها ، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغابياً أو مغالطاً « أترى كل ما في الموت هو هذا الفقدان للشعور بالذات ؟ » ولا ينفعني هذا فأرتد أقول « وكيف يعد حيا من لا يعرف أنه حي ولا يحس بنفسه ؟ وماذا تكون إذن جدوى استمرار حياة لا يحسها الحي ولا يفطن إليها ولا يدرك بها أنه موجود » أطبق الجفن على الجفن وأنا أحدث نفسي أن مالا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه ، فلأقصر عن تدبره ، ولكن على واجبيا هو ادخار القوة والدفاع بها إلى آخر رمق . ولكن قلبي يظل يخفق ويدق ، ويكبر في وهمي أني إذا نمت قد تختلس مني الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعا ولا أقوم بكفاح ، وأحس دقات قلبي في رأسي قوية تكاد تفلق العظم ، وأسمعها بأذني مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج ، بل يزلزل ، فاحتال لاستعادة السكون ، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن القعود ، فيما جربت ، يعفيني من حدة الشعور بدقات القلب ، وأروح أقول لنفسي . يا هذا إن الدقات منتظمة وإن كنت أسمعها عالية ، وكل إنسان يستطيع أن يسمعها ويستهولها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها ، فقلبك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة ، يجمد من جرائها تيار الحياة ، وقد قال لي طبيب استشرته أن القلب سليم وأن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً وأن أيسر عمله كاف جداً لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أتلفتها بهذا التفكير الدائم في الموت ، فهل تستطيع أن تبين لي على أي شيء تحرص في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع ؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال ، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي ، ولا أبخس الحسن حقه ولا أغالي بالقبيح أو أهول به ، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل .

ولكن الخاطر يظل حاضراً أبداً ، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به ، فأنا أقعد للطعام وأحس من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه ، ولكن

كل لقمة أتناولها يصحبها إنذار « حاذر من الكظة » فانهض عن المائدة وما شبعت وتقول زوجتى وهى تقوم معى « لا أراك تأكل الكفاية » فأقول متمثلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ؛ وإذا أكلنا لا نشبع » وأتقى أن أعديها بما ينغص عيشى .

وأكون كما يقول الشاعر القديم :

ولما نزلنا منزلا طله الندى
أنيقا ، وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

ولكنى أنظر إلى هذه التى هى منى النفس ، وروح الحياة وريحانها فأرى بأول الظن « آخر الأمر من وراء المغيب » فتبدو لى ملفوفاً عليها كفن وقد شاعت الصفرة فى محياها المتوهج ، وآضت عينها التى تنفث السحر كقطعةمن زجاج ، وشاع فيها البلى علوا وسفلا ، وصارت غضارتها ونضارتها صديداً سائلا تسد من نتنه الأنوف .

وأرد نفسى إلى عينى وأترفق بها وأنا أتصور مآلها ، فأراها شجرة يذوى نورها ، وتذهب زهرتها ويجف ورقها ويسقط عنها ، فتتعرى . ثم يجىء الحطاب ويهوى على أصلها بالفأس . . . وكانت هنا شجرة ثم غابت . . . هذا كل شىء .

ويحضرنى بيت للخيام مما ترجمته عنه :

وأين ، لا أين ، بلبل غرد
كان يغنى على الغصون لنا ؟

فأديره فى نفسى وأدهوره فى شدقى ، بلا صوت ، وأظل مع ذلك ابتسم للجالسين وأحادثهم وأمازحهم وأجد معهم وهم لا يدرون أنى قبر مظلم ، وأنى أستر نفسى وأحجبها عنهم بأزاهير الضحك المتكلف ، أى نعم

لما أعرفني ضحكت ضحكة من القلب .. ضحكة سرور حقيقي عميق .. ولكن مالهم هم أقول لهم ذلك ، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود الدنيا في عيونهم ؟ ؟

ويلقاني الشبان ، ويسألونني ، ويرهفون السمع لما أقول ، وفي ظنهم أني أحكم منهم وأعلم . وإني لكذلك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم أفضل منه الجهل ، فأقول لنفسي . يا هذا . إنك مسخ كريه ، وإن كان هؤلاء الشبان لا يعلمون ، فلا تنزع القناع ، ولا تكشف لهم عن الخراب والقبح الذين في نفسك ، ولا تدع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصلمهم به الحياة عاجلا أو آجلا بل آجلا كما أرجو لهم وأحب وإني لأتمنى لهم السلامة والنجاة، ودوام الاغترار بالعيش ، وإن قلبي ليعصره عاصر حين أتخيلهم وقد فتحوا عيونهم على حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها ، وأروح أرسم لهم صورة للحياة الزاهية واضع نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا شططاً ، فليس أقسى من ثني الأعصاب وأكراهها على حالة غير حالتها ويخيل إلى وأنا أبذل هذا الجهد من نفسي أني أوقدت ناراً تحت أعصابي لتحمي ، وأني أدقها بمطرقة لتلين وتتخذ الصورة التي أريدها ويؤسفني أني لا أجد ما أمرها به بعد ذلك لتخمد الجذوة وتبرد ، ويذهب عنها الحر .

وأسأل نفسي « أتراك تتمنى أن تستأنف حياتك وتبدأها من البداية كرة أخرى ؟ » ولا أكذب نفسي فأقول (لا) وأحس أني في حيرة ، فلا أستطيع أن أقول (نعم) وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة ؟ وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية ،فهل يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها ؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق ، فأزهو في فراق النفس ، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة ، أو ابتداءها من جديد ، إلا ضربا من الموت ، فكأني سأموت ميتتين بدلا من واحدة.

وأحيانا هـذا الخاطر بالتهكم والسخرية . أركب بهما نفسى والناس والحياة وكل ما فيها ، وتستغرقنى العاطفة الفنية فترة ، فأذهل ، وأهنأ ، لأن بالى خلا من التنغيص ، ولأن عاطفتى الفنية جعلتنى فيما أحس أقوى من الحياة نفسها ؛ لأنها انتزعتنى من اللجة ، ووقفت بى على الشاطىء وأتاحت لى أن أتأمل صورة الحياة من ناحيتها المسلية ، وأنا بمعزل عنها فكأنى محلق فوقها ، غير خاضع لها . . ومن يدرى ؟ لعلى أدخل السرور على نفس أخرى مثقلة كنفسى ، بما أعالج من فكاهة الحياة ؟ . ولبثت قليلا أن أستطيع ذلك وإنه ليسعدنى أن أتوهم أنى أستطعت إسعاد غيرى ولو دقائق معدودات وقد أكون واهما ولكنه وهم جميل ، بل جليل ، وأنه الذى يغرينى بتلمس الجوانب الفكاهية فى الحياة ، ولا أنكر أن هذا يسرى على نفسى أيضاً ، ولكن ما ينفعنى ويشفينى ساعة لا يخلو من نفع لغيرى . وما أظن بى إلا أنى أصبحت، كذلك الذى شفاه دواء لا يعرفه الأطباء ؛ فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكين المتوجعين لوجه الله وشكراً لله .

وقلت لنفسي أيضاً : « يا هذا ، لقد جاوزت الخمسين ، فأنت الآن فى المنحدر ، كنت على جانب آخر من جهل الحياة ، تصعد وتتوقل ، ويصرفك ما فى الصعود من مشقات وما يتقاضاك من جهد ، وما تأخذه عينك من صور ومناظر — عن التفكير فى الذروة وما بعدها ، فالآن أشرفت على الجانب الآخر ، ولا مفر لك من النزول . وعبث باطل ليس بجدى أن تخادع نفسك ، وتوهمها خلاف ذلك . وقد يتيسر لك أن تقف هنا قليلا ، وتتلبث هناك لحظة ، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف ، لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق ، فهى أبداً — أو فى الأغلب الأعم — إلى تحت . . إلى المصير المحتوم . . وهو محتوم . . محتوم ، ما فى هذا أدنى شك فما قولك فى رياضة النفس عليه ؟؟ تروض نفسك على الموت . . على الاطمئنان إليه . . على

السكون إلى ما يهولك منه ، والرضى به ؟؟ واعلم أن هذا لا ينفي حرصك على الحياة وضنك بها ، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها ، فأنت كالذي يذهب إلى مدرسة ليهيء نفسه لغده المأمول ، فهذا غدك الذى لا ريب فيه ، فمن أصالة الرأى أن تتهيأ له . وسينفعك هذا ، ومواجهة الحقائق أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها . . »

وراقنى هذا ، فصح عزمى على رياضة النفس على السكون إلى الموت .

— ١٧ —

سألت نفسي : « لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية ، مرة أخرى ، فهل تراني أسير فيها كما سرت ؟ »

وخطر لى ، وأنا أدبر هذا السؤال فى نفسى أن الأولى أن أسأل : هل يسرنى أو أنا أشتهى ، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة ، وأن أكر راجعاً إلى تلك البداية ؟

ولا أدعى أني كرهت هذا ، ونفرت منه ، ولكنى أقول . إنى ترددت وصحيح أنها كرة — لو أتيحت — يكبر بها الأمل فى طول البقاء فى هذه الدنيا ، والتلبث على الأرض ، ولكن المعول فى الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة ، وعدد السنين ، بل بالامتلاء والسعة ، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أنى تجاوزت الخمسين ، فإنى — كما قلت قديماً أيام كنت مغرى بالنظم —

أحس كأن الدهر عمرى ، وأننى أخو مغرق الأرضين بالفيضان

ويضحكنى الآن أنى قلت هذا ، فما أعرف أخى المزعوم هذا من عسى أن يكون ؟ وقد كنت أعنى نوحا ، ولكن نوحا لم يغرق أرضاً ، ولم يفجر ماء ، وكل ما كان منه أنه صنع فلكا حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أقلعت السماء ، وبلعت الأرض ماءها ، فليته ما فعل ؟ وهذا البيت مثال للتأليف السخيف الذى لا دقة فيه ولا إحكام . وبعد أن يقول المرء أن الدهر كله ، عمره ، لا يقبل منه هذا القياس المحدود ، بأن يكون أخا نوح أو حتى أخا آدم ، فإن مسافة هذا الزمن مهما طالت لا تعدو أن تكون جزءاً من الدهر . وقد كنت فى هذا البيت شبيهاً بالعامة أو الأطفال

حين يقيسون ما لا حد له إلى ماله حدود قريبة . وللعامة عذر من أنهم محدودون ، وأن فجاج الفكر والخيال والشعور مسدودة عليهم ، وليس كذلك الأديب الذى يزعم أنه واسع ، وأنه عالم صغير « يسع السبعة الأقاليم طراً » كما يقول ابن الرومى فى بيت يهجو به ابن بوران ، أو أمه ، ويقول بعد :

كضمير الفؤاد يلتهم الدنيا وتحويه دفتا حيــــزوم

والذي يزعم نفسه قادراً على أن يطوى العالم كله فى ضميره ، وأن فؤاده يتسع للدنيا لا يجوز له أن يكون قاصراً محدود الخيال ، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامى النفس

وكان بعض الإخوان قد أشار على أن أعيد طبع ديوانى بعد أن أضيف إليه مالم ينشر ، فقلت له إنى لا أرضي الآن عما قلت من الشعر في صدر حياتى — وأنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة ، ليصبح فى رأيى صالحاً للنشر ، ولا صبر لى على هذا ، ولا وقت له عندى ، ومن الخطل أن أنشر مالا أستجيد ، فقال إن رأيك فيه ليس من الضرورى أن يكون رأى الناس مثله ، وأن مالا يعجبك قد يعجب غيرك ، وأن ما يروقك قد لا يروق سواك .

فقلت هذا صحيح ، ولكنه شعرى ، ونشرى له معناه رضاى عنه وارتياحى إليه ، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لهم خذوا هذا الشعر ، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبي ، ثم إن رأيي أنا فى كلامى هو الذى يعنيني ، وما قلته إلا للعبارة عما في نفسى . .

فإذا كنت أرانى لم أجد العبارة ولم أوفق في التصوير ، وأنى تشابه الأمر على ، لجهلى ، وخلطت بين العرض والجوهر ، وركبني الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسي وخوالجي ، فكيف أستبيح أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على الناس ؟ ؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت مافيه من قصور ، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتى – كرة أخرى – من البداية ، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته ، وأعذب . وإنى لأغوص فى أعماق نفسى الآن ، فأجد أنى فى شبابى لم أسعد به كما أسعد بذكراه ، وأنى لم أجعل بالى فى عهده إلى الحلاوة التى أتذوقها الآن من عرض أيامه على خاطرى ، ونشر المطوى من زمانه . وأحسب أن الذى يكسب ذكرى الشباب هذه الحلاوة ويرقق القلب له ويعطفه عليه ، ويعصره أيضاً ، هو أن الإنسان ينتقى منه وينتخب ، ويغربل وينخل ، ويبرز ما يحب ، ويحجب ما يكره ويقول هذا هو الشباب !! كلا ، ليس هذا بالشباب ، وما كانه قط ، ولن يكونه ، وإنما هو الحميد منه ، مستخلصاً ، ومصفى ، ومعروضاً على نفس تحس دبيب الفناء ، وتشعر بأنها مولية عن الدنيا ، وكل ما يذهب ولا يرجع يلتفت إليه القلب ، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة في استعادته ، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضى ، وللكهولة لذاتها ومتعها ، كما للشباب ، بل لعل متع الحياة ولذات العيش فى الكهولة أقوى وأعمق ، فإن للتجربة مزيتها وللمعرفة فضلها ، والمرء يغالط نفسه حين يقول إن ما مر به كان أطيب مما هو فيه ، فما كان كذلك ؛ ولكن الذى فى الماء لا يستطيع أن ينعم بمرأى البحر ومناظر السابحين فيه ، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطىء ، والماضى أوقع فى النفس لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن ، والأسف على انقضائه ، وتمنى عودته ، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعاً . كالسابح في الماء يشغل بجهد السباحة عما حوله من المناظر . وإذا وسع الإنسان أن يكون فى اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد ، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله ، كما يفعل حين يتدبر الماضى – إذا وسع المرء أن يفعل هذا ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة الحاضر المتع المستفادة من رجع البصر أو التذكر .

والأمر يحتاج إلى رياضة ، وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا ، فأنا حين أكون على حال ما . لا أعجز عن انتزاع نفسي منه . والوقوف بمعزل عنه بحيث يتسني لى أن أراقب ما يجرى – كأنه يقع لسواى – وأن أدير فيه خاطرى فأكون فى الحاضر وكأنه مضى وذلفر بالمتعة المحسوسة والمتعة المتخيلة وضرب مثلا فأقول هبنى أعانق فتاة وأقبلها ، فأنا حين أفعل ذلك أشعر بمتعة القبلة ولذة الضمة ، ولكنى أزيد على ذلك أنى أستطيع أن أسبق هذه اللحظة بسنة أو سنتين . وأتصور نفسي جالساً أتذكر حلاوة القبلة التى فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصورى هذا فى أثناء التقبيل . فهما قبلتان – واحدة أحسها بفمى ويرف لها قلبى وأخرى يجسدها لى خيالى كما ستكون بذكراها بعد انقضاء عام أو عامين وهكذا فى غير ذلك .

لهذا لا أرى مزية للعودة إلى الشباب .

سالنى « بعضهم » هل تعتزل الناس ، أو تروم أن تعتزلهم ، لأنك ملك الحياة ، وزهدت في العيش ؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغمار ، ومصارعة التيار ، أي لفتور عراك وضعف أدركك .

وليست هذه ألفاظ السائل ، فقد نسيت الموضع الذى كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها ، والنسيان آفتى التى تكاد تذهب بلبى فإني أنسى كل شيء إلا أنى أكلت ، وما أذكر الشبع إلا بما أعانيه من كربة الثقال ، وأحسب أنه — وأعنى النسيان ، لا الشبع — هو الذى حمانى أن أحب وأعشق ، وكيف بالله يكون حب من يمسى عاشقاً ويصبح سالياً ؟ ؟

أى والله ، وإن الحسن لفتنة ، وإن القلب ليصبو !

ولكنى أنسى أني صبوت . وتطير من رأسى الأسماء والأحاديث ، كما تطير العصافير عن أعشاشها .

وقد اتفق لى أن خرجت يوماً بالسيارة وحدى إلى آخـــــر مصر الجديدة ، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشي في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء ، وكنت مطرقاً أنظر إلى الأرض وأنا أخطو ، وكان بالى إلى الفرق بين وقع قدمي — قدم رجلى السليمة ، وقـــدم رجلى المهيضة — وإلى مسافة الزمن التى يستغرقها الخطو بكل منها ، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى :

وكان الداعي إلى هذا أنه خطر لى أنى مخطيء فى اجتناب الرقص ، وأنه عسى أن تسعفنى ساقى المهيضة ولا تعبأ بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة فلا يبقي موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوغ لتوطين النفس عليه ، وأنا أحب الرقص ، ولكنى لا أحب أن أكون حجر طاحون ، وأخشى أن تخذلنى ساقي ، فأتلكأ وأبطيء ، أو درس قدم التى أراقصها وأدور بها ، وأخجل أن أجرب قبل أن اتبين واستوثق ، وإنى لهكذا وإذا بي أصدم بفتاة داخلة من بعض أبواب الحديقة ، فاتقيت الوقوع بإسناد كتفى إلى كتفها ، واتقته هى براحتيها على صدرى وأفقنا فشرعت اعتذر ، فقاطعتنى وقالت « أهو أنت ؟ »

فابتسمت وقلت « ليس عندى أدنى شك فى انى أنا ، فهل يكفيك هذا الجواب ؟ إنه على كل حال من نوع السؤال »

قالت « إنما أعنى أن هذه مصادفة عجيبة . أين كنت كل هذا الزمن ؟ »

فتأملتها ، وأطلت التحديق فى وجهها الصابح ، ولكن رأسى لم يختلج فيه شيء . فهززت رأسي وقلت « كل هذا الزمن ؟ هل ؟ هل أقص عليك تاريخ حياتى من البداية ؟ »

قالت « ألا تذكر ؟ »

قلت « هذه هى المسألة — كما يقول هملت ، فهل سمعت به ؟ »

قالت « كيف تنسى ؟ كيف يمكن أن تنسى ؟ »

قلت « اسمعى » وجررتها من ذراعها إلى مقعد ، هذا موضوع يحتاج إلى تقص طويل ، فقولى لى : هل أنا مدين لك ؟ هل اقترضت منك مالا ، أو استعرت شيئاً ؟ »

فضحكت وقالت « لا مال لى أقرض منه ، وليس عندي ما يستحق أن يعار »

قلت « هذا حسن . فإني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس : سؤال آخر . . . »

فقاطعتني وقالت « لاتسأل . . سأذكرك بكل شيء »

قلت « خيراً إن شاء الله ، هاتي ما عندك »

قالت « أتذكر السويس ؟ »

قلت « أعرف السويس ، مصيف جميل، ومشتى أجمل ، فهل تلاقينا هناك على ساحل البحر ، أو في الكازينو ، أو على الباخرة التي ركبتها إلى الحجاز أو . . . »

قالت — وهي تضحك — انتظر لا ، لم نتقابل في السويس ، بل في طريق السويس ، عند الكيلو الخمسين ، وكنا عائدين إلى مصر . . »

فقاطعتها « كنا ؟ من تعنين ؟ »

قالت « ألا تنتظر ؟ أخي وصديقتان وصاحب لهما ، وأنا ، فانكسر غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجده ، وكاد يدخل الليل ، وكدنا نيأس ، فقد كانت السيارات التي تمر بنا ، لا تقف ، وهي صغيرة لا تتسع لنا ، ولا تقوى على جرنا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك فوقفت ، وسألتنا عما نريد ، فأخبرناك ، فاقترحت أن تحملنا جميعاً في سيارتك ، ولكننا اعترضنا ، وقلنا إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحنا عليك أن نربط السيارتين فتجرنا ، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لي « ستخرب سيارتي ، وسينهكها هذا العبء ، ولكني حسبي عوضاً أن ست عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشراق » . .

وقد عرفناك وعرفتنا ، وكتبت أسماءنا كلها في رقعة ، ولقيتك أنا وأخي بعد ذلك مرتين ، دعوتنا في أولاهما إلى السينما ، وفي المرة

الثانية قضينا أكثر من ساعتين فى الأمريكين ، وقد أخبرتك فى ذلك اليوم أنى مسافرة إلى الأسكندرية لقضاء شهر فيها ، وأعطيتك عنوانى فوعدت أن تزورنى ، وأن تكتب إلى ، قبل الحضور ، ولكنك لم تفعل لا هذا ولا ذاك » .

قلت « الحمد لله »

فقطبت وقالت « إيه ؟ ماذا تعنى ؟ »

قلت «اسمعى . إن رأسى هذا غربال واسع الخروق ، كما يعرف كل من يعرفنى ، وقد كنت أخشى ، وأنت تقصين على الحكاية ، أن أكون قد قلت أو فعلت شيئاً . . الحمد لله على كل حال ، فقد اقتصر الأمر على هذا القدر » .

« قالت » ولكن لماذا لا تنتظر ؟ لقد وعدتنى أيضاً .. »

فقاطعتها قائلا « هل تريدين أن تضحكى على ذقنى ؟ لأنك عرفت أنى سريع النسيان ، تخترعين وعوداً و .. »

قالت « ولماذا أخترع ؟ »

فتناولت ذراعها وسألتها « سأوجه إليك سؤالا قد يبدو لك محرجا أو ثقيلا ولكن عذرى هو هذا النسيان ، هل قلت لك أنك جميلة ؟ » .

قالت « نعم .. قلت : « إن عينى زرقاوان كالبحر ، وعميقتان مثله» .

قلت « هذا صحيح » ففرحت وصاحت « هل تذكرت؟» قلت «كلا » إنما أعنى أن عينيك هكذا تماماً وأن هذا الوصف هو الحقيقة على كل حال — وهل .. هل .. ؟ »

قالت « نعم »

قلت « ماذا تعنين بنعم » بعبوس .

قالت : منتظرة سؤالك »

فتشهدت وسألتها «هل بستك ؟؟ معذرة !»

قالت «أوه . . هذا . . . نعم ثلاث مرات . . . مرة فى الطريق وأنا معك فى السيارة ومرة . . »

قلت «كفى . . كفى . . إنى آسف . . ولم يبق إلا أن أسأل هل كانت القبلة حلوة ! ؟ أظن أنى سأجن .. »

فقالت ، وهى تضحك «إنك مدهش . ولكن هل صحيح أنك تنسى إلى هذا الحد ؟ أم تراك تتكلف لتعابثنى ؟

قلت «لا والله ، ما أذكر أنى رأيتك فى حياتى .. »

وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش !

فهذه حادثة تريك كيف يكون من المستحيل على أن أعشق ، لأنى أنسى كل حب ، بل كل عاطفة ، لا يزيد عمرها على أربع وعشرين ساعة ، على الأكثر ، ثم تنطوى .

وأعود إلى السؤال الذى بدأت به هذا الفصل، فأقول إنى لم أسأم الحياة ولم أزهد فيها ، ولا فترت عنها ، بل أنا أطلب لها ، وأقوى رغبة فيها ما كنت فى أى عهد مضى ، ولست آنس من نفسى عجزاً عن مسايرة الدنيا ، أو الناس ، فإن الأمر على النقيض ، وأحسب أن الرغبة فى الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها أو قصرها ، أو يفكر فى أنها إلى زوال ، لأن ما يحسه من فيض الحيوية لا يجعل له بالا إلى شىء من ذلك ، ولأنه يكون مشغولا بانفاق هذه الحيوية الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر ، فهمه أن يريح نفسه من ثقل الضغط ، وأن يفتح «البوابات» كلها لينحدر منها ويخرج ما يجاوز طاقته ، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم ينقضى الشباب فيسلس التدفق وتخف وطأته ويزداد شح المعين على الأيام ، فيتسنى للمرء أن يفكر

بعقله وينظر بقلبه وأن يدير عينه فى الماضى ، والحاضر ، وأن يمد بصره فى المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية ، فيفرق ويشفق وقد يجزع .

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشتهى أن يفوز فيما بقى له من العمر . باضعاف أضعف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم فى أوجز وقت لأنه من يدرى ؟ قد لا يطول العمر . وقد يتخونه الموت . وهبه طال فقد لا تبقى الصحة . وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع ؟

فهو لهذا يقبل على الحياة ، لم يكن يفعل فى شبابه ، لأنه كان مغترآ بالعباب الزاخر فى شبابه ، ومفتونا به ، ومصروفا عن التأمل والتدبر ، أما فى الكهولة فماذا يغتر ؟ وماذا يتوقع ، وهو يحس النضوب يوما بعد ؟؟ ومن أجل هذا يخطىء من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة ؟ فما ينقطع أو يفتر الإقبال ، ولكن المرء فى صغره يركب الحياة بالجهل ، أما فى الكهولة فإنه يركبها بالإرادة ، وهو فى شبابه يكون محمولا على متن تيار لا يستطيع أن يقاومه أو يصده ، وفى كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة تمخر بها إلى حيث يبغى ، وقد صارت فى عونه تجربته ، وسكون التيار ، كذلك يخطىء من يحسب الكهولة اضأل استمتاعا بالحياة ، فإنها أدرى بالمتعة ، وأحس بها ، وافطن لها ، وأعرف بوجوهها ، وأخبر بالوسيلة إليها .

كلا ، لست أنشد الاعتزال لشىء من هذا الذى سأل عنه بعضهم ، بل لأسباب أخرى أعمق ، أحاول أن أجلوها ، وأرانى كلما عالجت ذلك أذهل عنها ، أو استطرد ، أو أغرق خطر أنها فى بحر من الذكريات والتأملات .

قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالا على الحياة ، وطلباً لها ورغبة فيها ، أو أن الكهل أقل تشبثا بالحياة أو أكثر فضيلة أو آثر لها وللعفة والزهادة فى سيرته . وقد أثار هذا القول اعتراض بعض الإخوان ، فأنشأوا يجادلوننى فيه ، فكان مما قلته لهم إنكم لا تواجهون الحقائق بل تهربون منهما ، وتشيحون بوجوهكم عنها ، لانكم ترون هذا أكرم لكم وأبعث على توقيركم ، أو أنتم تجهلون نفوسكم ، أو تغالطونها أو لا أدرى ماذا غير هذا وقد كنت شابا كما كنتم ، ولعل الفرق بينى وبينكم أنى كنت ، وما زلت ، مغرى بإدارة عينى فى نفسى ، والغوص فى لجتها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث ، وأنى لا أحب أن أسمى الأشياء أحسن أسمائها بل أسماءها الحقيقية ، وأنى قد أغالط الناس ،وأخدعهم ولكنى أصدق نفسى . وليس أحلى عندى وأمتع ولا أوقع وأروع ، من أن أتناول نفسى ، كلما تيسرت لى الخلوة بها ، وأحطها على كرسى أمامى ، وأتدبرها ، وأجيل فيها عينى ، وأفحصها وأجسها ، وأسبر أغوارها ، وامتحن نزعاتها وبواعثها ، والتمس المصادر الأولى لأهوائها فى أعماقها ، وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد ، بلا تلعثم ، أو مصانعة ، أو مغالطة ، وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التجنى ، ولكنه خير عندى من المغالطة على كل حال .

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط ، والصواب أنها هى التى تركبه فى شبابه تركض به من غير أن يكون له رأى أو إرادة ، ومن غير أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع ، وما يركب الحياة بالرأى والإرادة

إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع . أو هذا ، على الأقل ، مابلوته من نفسي ، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح .

كنت شاباً . فكيف كانت حياتى ؟ وكيف كان الشعور بها ؟ أرد عينى إلى هذا الماضى وأحدق ، واستشف ، واستجلى ، واستوضح .

ثم أهز رأسى ولا يسعنى إلا أن أقول لا أدرى ! كل ما أدريه أنى كنت محمولا على متن تيارقوى ، وكنت أقرأ ، وأعمل ، وأجد وألعب ،وأشتهى وأطلب أو أقصر ولكن بغير فهم صحيح ، أو إدراك تام لما أنا فيه ، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور ، كانت الكتب تعدينى وتسحرنى ، فانظر إلى الدنيا بعيون أصحابها لا بعينى ، وأحسها بقلوبهم لا بقلبى ، وأتصور حياتى وأقيسها على ما يروقنى من صور الحياة فى هذه الكتب ، وانتحل آمال أصحابها ومخاوفهم ، وهماتهم وعزماتهم ، ومثلهم العليا ، وصور الكمال عندهم ، وأوحى ذلك كله إلى نفسى ، ثم ازعمنى ندمهم وقريعهم فأزهى وأتكبر ، وأغتر ، لأنى أرى نفسى كما رسمها خيالى الذى استمد من هذه الكتب لا كما هى فى الواقع ، وكنت أفعل الشىء أو أتركه بوحى هذه الكتب .

واضرب مثلا ــ عشقت مراراً ، وقال فى صديقى الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إلىّ ، فى ذلك الزمان .

أنت فى مصر دائم التمهيد   بين حب عفى ، وحب جديد

وأذكر أنه بعث إلى يومئذ برقعة كتب فيها اسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها ، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفاراً لا أسماء ، إشارة إلى أن معاشقى لا تنتهى ، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها .

وإذا قلت عشقت ، فإنما أعنى الآن أنى اشتهيت ، وأنى عانيت هذا الضرب من الجوع الذى يسميه الناس الحب ، ولكنى لم أكن أدرك هذا يومئذ ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه ، وإنما كان ما أقرأ من الشعر يغرينى بنشدان الحال ، ويطلقنى كالنحلة بين أزاهير الحسن ، ويدفعنى إلى إيحاء الشعور بالحب إلى نفسى ، فأتوهم أنى محب ، وأنى عاشق ، فأقضى الليل مسهد الجفن مؤرق النفس ، أنظم الشعر وأقول فى هذا المحبوب أو ذاك .

وألقى المحبوب ، فماذا كنت أصنع ؟؟ لا شىء أكون معه كما أكون مع أى واحد من خلق الله ، ولا يخطر لى حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد بنضارته ورونقه ، أكلمه كما أكلم غيره ، وأجد أو أمزح ، على نحو ماأفعل مع إخوانى بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتى ، وأقعـد بين كتبى ، فأروح أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر ، وأخلع عليها من الخيال حللا ذات ألوان شتى ، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات أو نظرات لم أعبأ بها فى حينها ، وأحملها المعانى التى أريدها ، فأسر بهذا ، وأتألم لذاك ، وأرى فى هذه الكلمة والإشارة أو النظرة ، معنى الرضى أو التشجيع ، وفى تلك معنى التدلل أو الملل ، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال هكذا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد !

لا ، لم أكن أعيش ، أو أشعر بالحياة ، وإنما كنت أنظم شعراً ، وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذى أريد العبارة عنه ، والعاطفة التى أتخيل الصدور عنها ، ووحى لنفسى هذا كله ، وانتهى بأن أعتقد بأن هذا هو الذى شعرت به حقيقة لا توهما ، وأنه هو الذى خامر نفسى لا الذى أنشأته أنا لها بقوة الإيحاء .

ولا يخلو من فائدة فى بيان هذه الحقيقة ، وأن أقول أن قرض الشعر هو الذى كان المقصود والذى اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة وإن ماكان من حب متوهم وإنما كان ثمرة هذه الرغبة فى قرض الشعر ،

أى أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له ، كما يريد النجار أن يصنع كرسيا فيطلب الخشب وما إليه ، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء ، أن من أعرف الآن من نفسي أنى صغوت بقلبى إليها لم تكن قط موضوعاً لشعرى ، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرت عن زهرة إلى زهرة فى بستان الحسن ، فذاك لأن العاطفه لم تنشأ نشوءاً طبيعياً ، بل بإيحائها إلى النفس .

وفى وسع القارىء أن يقيس على هذا . فأنا لم أكن فى شبابى أتلقى وقع الحياة مباشرة ، بل عن طريق الكتب ، وكنت لهذا كالذى نومه غيره تنويماً مغنطيسيا ، فرأيه ، وشعوره ، وعاطفته ، وهواه ، وأمله وخوفه ، وحبه وبغضه ، هو ما يحدثه فى نفسه إيحاء منومه .

وقد شببت عن هذا الطوق . وما زال ولوعى بالكتب كما كان ، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم ، فقد استطعت بفضل معاناتى للحياة أن أقى نفسى وأجنبها تلك الفتنة ، فأنا أنظر فى الكتب ، وفى الحياة ، بعينى ، لا بعين الكاتب أو الشاعر ، وأحس بقلبي لا بقلب سواى وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب ، وأطلب الشيء لأنى أريده وأراه جديراً بالطلب ، وأقيس قدرتى إلى رغبتى ، وأوازن جهد السعى وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط ، والموازنة الدقيقة .

وأحاول أن لا أغالى بقيمة شيء ، أو أن أبخسه حقه ، ولا يستخفنى هوى ، أو يغرنى حال ، أو يخرجنى عن طورى أمر ، أو يفقدنى اتزانى فرح أو حزن ، ورضى أو غضب ، ولا تجمح بى شهوة ، ولا تركض بى صبوة ، لأنى أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء ، ولا أعدو بها مكانها . ولا أخلط بها الأوهام ، ولأنى أسير فى الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجواذب ، فإذا سألتنى لماذا أفعل الشيء ، فإنى أعرف الجواب الصحيح ، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن ، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه .

ويمكن أن أقول — ويمكن أن يصدق القارىء — إنى كنت فى شبابى أواقع الحياة مواقعة الهواء ، أما الآن ، فإنى أواقعها مواقعة المحترف ، وقد صارت الحياة عندى حرفة ، تعلمتها ، وحذفت منها الجانب الذى طلبته ورأيته أوفق لى . والفرق بين الهاوى والمحترف لا يحتاج إلى بيان .

وكل عواطفى وأهواء نفسى ، طوع إرادتى ، وإراداتى لا تخضع إلا لتقديرى لما ينبغى — ويحق لى فى رأيى — أن أفوز به من الحياة . والعمد فى سيرتى محقق ، إلى الحد الذى يتيسر للمخلوق الخاضع لسنن الخلق . وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسى . لأنه يكسبنى حظاً من الاستقلال ويجعل لى فيما أشعر نصيباً من الحرية ، فى الحياة ، ولا شك أنه يجعل شعورى بالتبعات أقوى وأثقل ، ولكن هذا هو الأكرم ، إذ أى قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع ؟

— ٢٠ —

كانت حياة الشباب ، حياة كبت ، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف لى يومئذ معاداً غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرض الشعر وكنت أقول — ولا يخفى على عبث ما أحاول —

وما نظمى من الأشعار إلا علالة
لو أن سلَوْا بالقريض يكون ! »

* * *

وكنت أقول لمن يذكرون شعرى :

« فلا تنفسوا شعرا ، على ، مفوفا
له ، لو علمتم ، جانب متخوف
كما نظمت هـــذه الرياح غمائما
لها من غروب الشمس وشى مطرف
يهددها مما يضم ، ممزق ..
ومما يوشيها ، مذيب ومتلف
لنا الله من قوم تذيب نفوسنا
ويجنى سوانا ما نشور ونقطف
ويصدر عنـــا الناس ريا قلوبهم
ونحن عطاش ، بينهم نتاهف
نذوق شقاء العيش دون نعيمه
على أننا بالعيش أدرى وأعرف

* * *

وأحب أن اتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولى :

« ولكنه ما أخطأتنا لذاذة
إذا بلغ السؤل القريض المثقف
إذا هو سرى عن لهيف مفجع
وآنس قلباً موحشاً يتشوف
فما تحفل الدنيا إذا جل ظلمها
ونحن من الأيام والعيش ننصف »

ولم يكن زعمى أنى أحد الذين ينصفون نفوس الناس من الأيام وظلمها ، بعزاء صادق أو دائم ، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على كاهل صبرى فأصيح :

« لبست رداء العيش عشرين حجة
وثنتين ، ياشوقى إلى خلع ذا البرد !
عزوفا عن الدنيا ، ومن لم يجد بها
مراداً لآمال تعلل بالزهد . »

فيوم كان فيض الحياة زاخرا ، كنت أقول ياليتنى ماكنت ، ولم يكن هذا طبيعيا ، ولكنه كان ثمرة الكبت ، وجنى الحرمان ، وقطاف الحيرة ، والآن ، وأنا أدلف إلى الخمسين ، لشد ما أتمنى أن يثقل الزمان رجله ، ليطول التلبث ، « تقضى النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف الركب مسيره إلى « فجر لا شيء » كما يقول الخيام فى إحدى رباعياته ؟ وقد صار ماكان يشق على أن أراه ، باعثا على التسلية ومجلبة للسرور ، ولم يصدق ظنى حين توهمت فى أيام الشباب الكاذب ، أنى سأقضى حياتى ثائر النفس ، هائجا ، أنه ليس لى عن ذاك معدى أو مهرب فقد قلت :

« سكنت ، فما أدرى الفتى كيف يغتدى
تجد به الأشجان طورا وتلعب »

كما قلت على لسان غيرى .

بل لم أسكن ، ولكنى نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى ، فقد تغيرت الدنيا ، واختلفت أحوال الحياة ، فراجعت نفسى . ورضتها على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى . فقد عرفت أن شعورى القديم بالمقت للحياة كان غير صادق ؛ وأنه لم يكن سوي مظهر لحالة عارضة أعانيها . وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة كان يصطدم أحيانا بالجزع من الموت . فكان يرجني هذا ويخرجنى عن طورى . ويعصف باتزانى فأرانى أثور وأحاول فى مثل هذه الحالة الوقتية أن أنغص على الناس كأن لهم ذنباً أو كأنهم ليسوا مثلى سواء بسواء ، فأروح أقلد « هينى » الشاعر الألمانى ، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون الثورة ، فأقول مثلا :

« سترخى على هذى الحياة الستائر
وتطفأ أنوار ، ويقفر سامر

فهل راق هذا الناس قصة عيشى ؟
وماذا يبالى من طوته المقابر ؟

تركت لهم من قبل موتى وصية
نظير التي وصت بها لى ، المقادر

وهبت لأعدائى ، إذا كان لى عدى ،
هوى وما منه ، أنا الدهر ، ثائر

وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى
وبالدمع لا يراقا ، ولا هو هامر ،

وبالجدرى فى وجهـــــه ليزينه
وبالعرج المشنوء ، والله قادر

وبالضعف والأملاق والبأس والجوى
وبالقسم حتى تتقيه النواظر ،

وللشيب بالأوجاع فى كل مفصل
وبالثكل فى الأبناء والجد عاثر

وكل سقام قد تركت لذى الصبا
وما كنت منه فى الحياة أحاذر

وللناس ألوان الشقاء ، وإننى ،
إذا مت ، لا آسى على من يخامر

ولم يكن لى فى ذلك الحين بنون ومن أجل هذا فاتنى أن أوصي لهذه الطبقة بشىء من تلك الثروة البغيضة !

وكان عقلى يثوب ، فأطوى هذا الهراء ، ولا أنشره فيما كنت أنشر من شعرى . . على أنى كنت هادئا ساكنا ، لما عثرت — وأنا أحاول .

عبثاً أن أتعلم الألمانية وحدى — على بيتين فيهما غير قليل من خبث المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلى — والمفروض أنهما يكتبان على قبر صاحبهما .

أيها الزائر قبرى
اتل ما خط أمامك

ههنا ، فاعلم ، عظامى
ليتها كانت عظامك !

وترجمتى هذين البيتين ، وأنا هادىء ، دليل على أن الثورة كامنة في النفس وإن كانت لا تبدو في العادة .

ثم صرت لا يعزيني علمي أن غيري لا محالة ذاهب ، إلى حيث أذهب وإن المآل واحد ، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله ، بل العوالم أجمع ، حتى هذا لم يكن فيه مقنع ، فكنت أشتهي أن أكون آخر من في الدنيا لأشهد مصرعها بعيني ، وأطمئن . وربما غالطت نفسي فزعمت لها أن هذه شهوة فنية ، ولكني لا أصدق ! كلا ، لا أصدق .

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين (ولا أدري لماذا لم أجعلهم أربعة أو عشرين !) يصنعون كفناً للعالم .

تعاقب أيديهم على النول ، دهرهم ،
ولست أراه غير أني عالم
وما بي ، إلى أن تبصر العين ، حاجة
أليس سوي ما أنت بالعين شائم ؟
هنالك ، لو تدري ، تسدى أكفهم
وتلحم ثوبا عهده متقادم
وفي مسمعي منهم — وإن كنت لا أرى
وجوههم — أصواتهم والزمازم
يحوكون ثوبا ناصعا فيه تنطوي
— متى عريت — هذي الدنا والعوالم
من البرد الخزى بيض خيوطه
ومن بلورات القر فيه نمائم
ومن نفس الريح المديد خطوطه
ومن قطع السحب الثقال مراقم

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها

فاشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائى هذه المرحلة أيضا ، فلست ألتمس عزاء ، أو أنشد ما أغالط به نفسى فى الحقائق . وسيان عندى اليوم أن يذهب الناس أو لا يذهبون ، فما أحفل شيئا من هذا ، وإنه لآثر عندى أن يبقوا لو كان إلى هذا سبيل ، على أنى لا أعنى نفسى بأمرهم ، وحسبى أمر نفسى ، وهى في هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده اضطراب ، لا على الركود فإن هذا شر من الموت ؛ بل طعمه يذاق في الحياة ، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة .

دار
الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

رقم الايداع ١٩٧١/١٥٥٣

مطبوعات
دار الشعب
تصدر عن
الشعب
مؤسسة صحفية عربية
اخصائيون في المطبوعات العاجلة
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة - ت ٣٦٨١٠ ● مكتبة دار الشعب - ت ١٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م